الجمهورية الجزائريَّة الديمقراطية الشعبيَّة

وزارة التَّعليم العالي والبحث العلميّ

جامعة ابن خلدون/ تيارت

كلية الآداب واللّغات

قسم اللُّغة والأدب العربي

الفرع: دراسات أدبيّة

تخصّص: أدب حديث ومعاصر

أثرُ المنفى في شعر الأمير عبد القادر الجزائري

مذكرة تخرج لنيل شهادة ماستر في الأدب العربي

ـ من إعداد الطّالبتين:

- فاطمة الزهرة عدَّة
- تركية بخيرة

. إشراف الدكتور :

- يوسف يوسفي

لجنة المناقشة

. أ. د/ إبراهيم بو شريحة. .....(جامعة ابن خلدون) ..... رئيسا

. د / يوسف يوسفي. . .....(جامعة ابن خلدون) ..... مشرفا ومقرّرا

. أ.د/ علي بو عزيزة .....(جامعة ابن خلدون) ..... عضوا

السّنة الجامعيّة:2019/ 2020

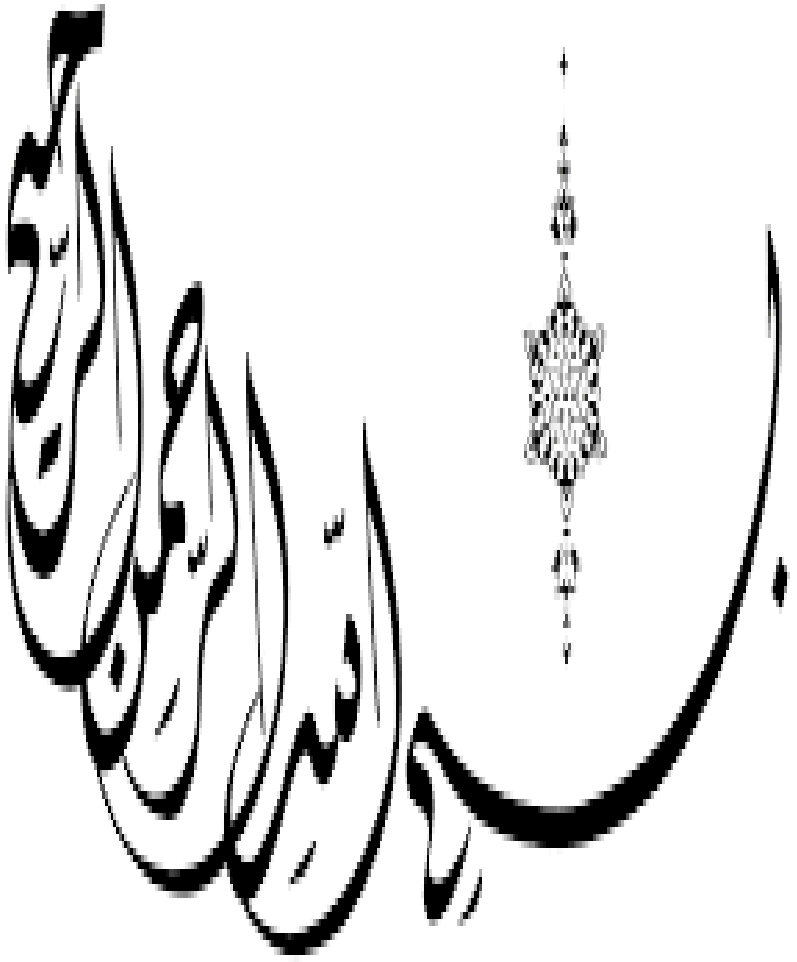

إهداء مشترك

قال المعرّي :

واعط أباك النِّصف حيًّا وميّتًا

وفضّل عليه من كرامتِها الأمّا

أقلّك خفًّا إذا أقلّتك مُثـقلاً

وأرضعتِ الحوْلين واحتملت تما

وألقتك عن جهدٍ وألقاك لذّةً

وضمّت وشمّت مثلما ضمّ أو شمّا

العيشُ ماضٍ فاكرِمْ والِديكَ بِه

والأمُّ أولى بإكرامٍ وإحسان

شكر وعرفان

الشّكر لله عزّ وجلّ على بلوغنا مسعانا، والعرفان بالجميل لكلِّ من مدّ لنا يد العون من قريب أ وبعيد ونخصُّ بالذِّكر أستاذنا الفاضل المشرف على رسالتنا: يوسف يوسفي الذي لم يبخل علينا بنصائحه وتوجيهاته القيِّمةِ، إضافة إلى الأستاذة: صغير حليمة التي أفادتنا ببعض المراجع التي صعُب الحصول عليها.

مقدِّمة

مقدِّمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرفِ المُرسلين.

أمّا بعد:

لطالما كان الوطن تلك الجوهرة الثّمينة التي يعتزُّ بِها أيُّ بشريٍّ في أيِّ قُطرٍ من أقطار كوكب الأرض، فيُحسُّ بالانتِماء لها، والرّغبة في الذّود عنها من أيِّ عُدوانٍ. وهذا الإحساسُ والشُّعورُ ليس بالمُحدثِ ولا الجديد، بل هُوَ مُتجذِّرٌ فِيهِ مُنذُ القِدم فبالنسبة للعرَبِيّ نجِدُهُ مُتمسِّكًا منذُ العصر الجاهلي بانتمائهِ للقبيلة، ومع ظُهور الإسلام ومُرور الوقت تأصّلت هذِهِ الفكرةُ وارتسمت حُدودُها أكثر مع مُضيِّ العُصور. مع كُلِّ هذا كان يتألّم الإنسانُ وخاصة الشّاعر للبُعد عنهُ لمُختلف العوامِلِ والأسباب، وظهر ذلك جليًّا لنا من خلال الأشعار المنظومة بِمزيجٍ من الحنِين والاشتِياق التي توارثتها الأجيال من العصر الجاهلي مروراً بالإسلام والأموي والعبّاسي وصولا إلى العصر الحديث. هذا الأخير تبلورت فيه هذهِ الفِكرةُ بِسبَبِ ظُهور الاستعمار وبالتّالي ظهور عامل المنفى الذي أدّى إلى إقصاء العديد من الشُّعراء من أوطانِهِم كان من أشهرِهِم: **"البارودي، وأمير الشُّعراء أحمد شوقي "** لكن أوّلُهم كشاعرٍ ذاق مرارةَ المنفى وتجرّعَ سُمّهُ هُو: أميرُ الجزائر" **الأمير عبد القادر"** ومن خلال ما سبق نتقدم بِطرح مجموعة من الإشكالات مُحاولين الإجابة عنها في سياق بحثنا هذا:

. ما هو شعر المنفى؟ وما أصوله وجذوره؟

. ماهي أسباب نفي وإقصاء الشاعر عن وطنه الأمّ؟

.كيف ساهم هذا العامل في نقل شعر الأمير من مرحلة إلى أخرى؟

أمّا عن اختيارنا لهذا الموضوع دوافعٌ وجيهةٌ متمثِّلةً في:

أوّلا: إعجابُنا بهذِهِ الشّخصيّةِ الفذّةِ، والتي جمعت معالم الكمال المُكوّنة للشّخصيّةِ العربيّةِ، كالشّاعريّةِ والفروسيّة والقُدرة العظيمة على القيادة، وتسليط الضوء على جوانب عديدةٍ من حياتِهِ والتي من أهمّها: كشفُ الحقيقةِ عن قضيّة استِسلامِهِ ونفيِهِ وكذا تغييرِهِ لأماكن منفاهُ، واستقرارِهِ بالأخير في دِمشق.

وإظهار جانب الوطن والبعدُ عنهُ في أشعاره فلطالما تمَّ تناولُ أشعارِهِ من جانب الصُّوفيّة التي كانت طاغيةً في معظم الدِّراسات.

وعليه رسمنا بحثنا وِفق خطّة تمثّلت في: ـ مقدِّمة، وفصلين يندرج تحت كلٍّ منهما مبحثين، خصصنا **الفصل الأوّل**: بالتّأصيل لظاهرة المنفى والحنين إلى الوطن.

تناولنا فِيه بداية هذهِ الظّاهرة عند العرب منذُ العصر الجاهلي، مرورا بصدر الإسلام فالأُموي فالعباسي، وكذا بدايتِهِ الفعليّة في العصر الحديث، والأسباب المؤدية لذلك مختارين شاعريْنِ كنموذجٍ لِشِعرِ المنفى هما:

"أحمد شوقي، والبارودي ".

أمّا **الفصل الثّاني**: فكان عن صُلبِ موضوعِنا ألا وَهُوَ " **الأمير عبد القادر**"

تطرّقنا فيهِ إلى حياتِهِ بالتّفصيل خاصّةً حياتُهُ بالمنفى، مُنتَقِين من قصائدِهِ، قصِيدَتَيْنِ هما:" **عذابُ الأسر، وغلاءُ الدّار بالجار**"، أولينا الأهميّة فيهما إلى دراسة:

. اللّغة والأسلوب: (الألفاظ، العاطفة، الأساليب المستخدمة، الصّور البيانيّة، المُحسِّنات البديعيّة، الصّوت) من أجّل إظهار حسّ المنفى فيهما، مُعتمدين بذلك في نسج خُيوط أفكارنا على المنهج الوصفي التّاريخي لكونهِ الأكثرُ

مقدّمة:

ملاءمةً لرجوعنا إلى حقبٍ زمنيّةٍ مختلفةٍ، وتناولنا في كلّ حِقبةٍ تطوّر شِعر الحنِين، واكتمال نُضوجِهِ في العصر الحديث وبالنِّسبة إلى هذا الموضوع من حيثُ شِعر الحنِين والمنفى وحدهُ فقد كان مطروقًا من باب الدّراسة فمثلاً: نجِدُ الغربة في الشِّعر الجاهلي "عبد الرّزاق خشروم"، والحنين والغربة في الشِّعر العربي، الحنين إلى الأوطان "للجبوري يحيى"، أمّا بالنِّسبة لجانب أثر المنفى في شِعر الأمير فلم نُوفّقْ بالتّصادم مع دراسات سابقة تصُبُّ في سياق هذا الموضوع.

مستخدمين مجموعةً من المصادر والمراجع كان من أهمِّها:

. الحنين والغربة في الشعر العربي، الحنين إلى الأوطان للجبوري يحيى.

. الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري ليحيى بوعزيز.

. الأمير عبد القادر المجاهد الصّوفي لمحمد بركات.

وفي الأخير خاتمة كحوصلة للموضوع، يليها المصادر والمراجع المعتمدة في إنجاز هذا البحث المتواضع.

وبالطّبع في ظِلّ هذِهِ الظُّروف التي عِشناها واجهتنا بعضا من الصُّعوبات والعراقيل كان أهمُّها: قلّةُ المصادر والمراجع والتي تعذّر الحصول على بعضِها وإن وُجدِت وكذا عدم توفُّرها في المكتبات، وعدم تحصُّلنا على دراساتٍ مشابهة للموضوع كان من الأمور الصّعبة للاستمرارية فِيهِ.

الفصل الأوّل:

التّأصيل لظاهرة المنفى والحنين إلى الوطن.

المبحث الأوّل:

المنفى في العصور الإسلاميّة الأولى بداياتُهُ ومظاهرهُ.

المبحث الثّاني:

المنفى والاغتراب في العصر الحديث.

تمهيد:

الإنسان بطبيعته مُتمسِّكٌ بجذور عدة: كالزّمن، العائلة، المجتمع وخاصّة الوطن فالعلاقة الرّابطة بينهم علاقة انتماء. علاقة حُمّى «فالوطن للمخلصين من أبنائه هُوَ همٌّ أشبَه بالحُمّى . حُمّى لا شفاء منها إلاّ بالعودة إلى الوطن». [1]

فالإنسان الصّادق المُرتبط بوطنه يشقى عليه ويُشقُّ عليهِ الابتعاد عنهُ سواء كان سفرا أو رحلة، فما بالك بالمنفى الذي فُرِضَ قصرا على أولئك الذين حملوا هَمَّ أوطانهم على كاهلهم.

وظاهرة الحنين والاشتياق لِمَكان الانتماء ظاهرةٌ قديمةٌ قِدم الإنسان، فنضرب المثال في هذا السِّياق في الحضارة العربيّة ونخُصُّ منها: العصر الجاهلي «ومن الجاهليّة بدأت تتّضِحُ ملامِحُ الوطن وتتحدّدُ عند بعض الشُّعراء». [2]

حيثُ صار الإنسانُ العربي القديم وخاصّة الشّاعر بحُكم طبيعته يتبيّنُ لنفسِهِ ما يُسمّى بالأرض والدِّيار، وصار يحِنُّ إليها عند فِراقِها أو التِّرحال عنها.

وهناك فِئة أخرى عانت الأمرين بسَبَبِ النّبذِ والابتِعاد عن الدِّيار والقبِيلةِ لأسبابٍ شتّى، أسباب اجتماعيّة (الغِنى والفقر)، وسياسية، نظام الطّبقيّة (السّادة والعبِيد)، ممّا جعلهُم ينفرون من المبادئ التي فُرِضت عليهِم بالإجبار فخرجوا عن نِطاقِ هذِهِ الأعرافِ وساروا عكسَها. فسمّاهم مُجتمعُهُم بالصّعاليك لخروجِهم عن تلك القوانِين التي عاشها آباؤهم وأجدادُهُم «وقد كان الصّعاليك نِتاجا لخروجِهم على أعراف القبيلة وتقاليدِها وتسلُّطها وكان كثير منهم من خُلِعَ وطُرِدَ بِسبَبِ جِناياتِهم وخُروجِهِم عن النِّظام القبلي». [3] فقبائلُهم لم تَستَسِغ لهم هذا الخُروج عن قوانينهم ودُستورِهم فكان العقابُ النّفيُّ والطرد منها، والابتعاد عن ذويهم وأهلِهم وتحمُّل لوعة الشّوقِ والفِراقِ.

---

[1] غابر فرمان طعمة، أدب المنفى والحنين إلى الوطن، دار المدى للثقافة والنّشر، د مشق، سوريا 1996م، (د ط). ص21.

[2] يحيى الجبوري، الحنين والغُربة في الشِّعر العربي، الحنين إلى الأوطان، دار مجدلاوي للنّشر والتوزيع، جامعة أربد الأهليّة، الأردن (1428هـ -2008،(ط1)، ص31.

[3] . المرجع نفسه، ص40.

فاستحضر الشّاعر العربيّ القديم هذا الألم ووصفَهُ في ثنايا قصائده، وأبياتِهِ فراح يَنظُمُ عن مدى الفراغ النّاتج عن فراق القبيلة وذويه.

"فعُبيد بن الأبرص" في مطلع قصيدته يقولُ:

أقْفَرُ من أهْلِهِ مَلْحُوبُ فالقطبيات فالذُّنُوبُ [1]

«يظهر من خلال هذا البيت مدى مَحبّةِ الشّاعر لقبيلتِهِ ووطنِهِ، ومدى الألم الذي اعتصرهُ وهو يرى دِيار قومِهِ وقد دُمِّرت تدميراً تامّاً وقد حلّ الوحشُ مكان الأنِيسِ». [2]

وقولُ " عُبيد بنُ أيوب العنبري " عن غربتِهِ وتعويض وُحوش البرّ عنِ الأهلِ والدِّيار:

أذِقنِي طعمَ الأمنِ أوْسَلْ حقيقةً عليَّ فإنْ قامت ففصلُ بنانِيا

خبَتْ فؤادي فاستَطَرَّ فأصبحت ترامى به البِيدُ القِفار ترامِيا

كأنّي وآجال الظِّباء بقفرةٍ لنا نسبٌ ترعاهُ أصبح دانيا

رأين ضئيل الشخص يظهر مرة ويَخفى مِرارا ضامِر الجِسمِ عارِيا

فأجفلْنَ نفرا ثُمّ قُلن: ابن بلدةٍ قليلُ الأذى أمسى لكُنّ مُصافيا[3]

يصِفُ الشاعر حالته التي آل إليها بعدما نُفِي من قبِيلتِه فبعدما كان ذا بيتٍ وعائلةٍ أصبح يفترِشُ الرِّمال وتُؤنِسُهُ الظِّباء. وبعدما كان ذا نسبٍ صار لا ينتمي إلى أيّ لقبٍ في هذِهِ القِفار.

---

[1] عبد الرزاق الخشروم، الغربة في الشِّعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا1986(د ط). ص40.

[2] المرجع نفسُهُ، ص42.

[3]. يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشِّعر العربي، الحنِينُ إلى الأوطان، ص41.

وقد أحسّ مُعظمُ أبناء القبيلة أصحابُ البشرة السّوداء بالغُربةِ وعدم الانتِماء في قلبِ مواطنهم وهذا ما ظهر كلون من ألوان النّفي والاغتِراب حيثُ أنّ سادة القبائل لم يعترفوا بِهم، وكانوا يدعونهم لأمّهاتِهم: «وكان آباؤهُم لا يعترفون بِهم أو لا يُساوونهم مع أبنائهم من أولاد الحرائر، وكثيرٌ منهم كان يُنسب لأمّهِ وليسَ لأبِيهِ، مثل: "قيس بن الحُدادية الخزاعي"،" والسليك بن السليكة"، وكان جُلّ هؤلاء الصّعاليك السُّود من الفرسان ولم يكونوا أحرارا من ذلك الفارس "عنترة" ولم يكن صُعلوكاً». [1]

ففريق منهم كان فارِساً صُعلوكا، وفريق آخر لم يكن كذلك أمثال: "عنترة بن شداد" والذي عانى من انكار والِدِهِ لهُ ونسَبُهُ لأمّهِ . ويقول:

ينادونني في السِّلم بابنِ زبِيبـة وعندَ صِدام الخيل يا ابنَ الأطايبِ

ولولا الهوى ما ذَلَّ مِثلي لِمثلِهم ولا خضعت أُسُدُ الفَلا للثّعالِبِ

ستتذكّرُني قومِي إذا الخيلُ أصبحتْ تجُولُ بِها الفُرسانُ بيْنَ المضارِبِ[2]

ويُبيّنُ في هذه الأبيات أنّ قومهُ يذكُرونهُ في الأيّام العاديّة وينسبُونهُ لأُمّهِ "زبيبة"، أمّا في أيّام الغزو وصِدام الخيل والحُروب والغارة باعتباره فارس القبيلة وحامي حِماها ينسُبونه لأبيهِ ويدعونه بِ (ابن الأطْياب) لغاية الذّودِ عنهم وحِمايتهم. أي أنّ مُعظم الفرسان كانوا يشعرون بنوعٍ من عدم الانتِماء والغربة حتّى وهُم في كنف قبائلهم وأوطانِهم.

---

[1] . يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، الحنين إلى الأوطان، ص48.

[2]. المرجع نفسه، ص48

المبحث الأوّل: المنفى في العصور الإسلاميّة الأولى بداياتُهُ ومظاهرهُ:

1) . المنفى والحنين إلى الوطن في صدر الإسلام:

مع بداية الدّعوة المُحمديّة ونشر الدّعوة الإسلاميّة في مكّة المُكرّمة تصاعد الظُّلم والقمعُ ضدَّ المُسلِمين ومُعتنِقي الدِّين الجديد، وتاركِي عِبادة الأصنام مِمّا كان هذا الأخير سبباً في هجرةِ المسلمين إلى معاقل أخرى وكان أيضاً سبباً في تغيير مجرى التّاريخ «ومن الواضح أنّ الهجرةَ إلى الحبشة أو إلى الطّائف أو إلى المدينة المُنوّرة تُعدُّ حدثاً كبِيراً في حياة الإسلام والمُسلمِين، خاصّة الهجرة إلى المدينة، فقد غيّرت مجرى التّاريخ بِرُمّتِهِ ... هي أوّل عاصمة للدّولة الإسلاميّة النّاشئة التي انطلقت منها الجُيوشُ الإسلاميّة الفاتِحة » .[1]

حيثُ أنّ المدينة المُنوّرة كانت قبلةً لخير الأنامِ، وبهذا صارت أوّلُ عاصمةٍ للدّولة الإسلاميّة ومركزا لانطلاق الفُتوحات الإسلاميّة.

ومن قبلها الهجرة إلى الحيشة وذلك بعد حِصار قُريشٍ للمسلمين حيث أمرهُم "رسول الله ". ﷺ باللّجوء إليها «وقِيلَ في وصف هذهِ الهجرة شعرٌ كثير تغنت بِه كتُبُ الهجرة النّبويّة والمغازي والتّاريخ، ومن هذا الشعر قول "عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي بن سهم" وكان مِمّن هاجروا إلى الحبشة» [2]

يا راكِباً بلّغن عنّي مَغَلغلةً من كان يرجو بلاغَ الله والدِّين

كلُّ امرئ من عِبادِ الله مُضطهدٌ ببطنِ مكّة مقهــورٌ ومفتــون

[1] محمد مهداوي، شعر الغزوات أيّام الرّسول . صلّى الله عليه وسلّم . أغراضه وخصائصه الفنيّة، ديوان المطبوعات الجامعيّة الجزائر2004. (د.ط). ص64.

[2] . المرجع نفسه. ص65.

أتَا وجدنا بلاد اللّه واسِعة تُنجي من الذُّلِّ والمخزاة والهونِ

فلا تُقيموا على ذُلِّ الحياة وخِزْ يٍ في الممات وعيبِ غيرِ مأمونِ

إنّا تَبعنا رسول الله واطرحوا قول النّبِيّ وعالوا في الموازين

فاجعل عذابك بالقوم الذين بَغَوا وعائذا بك أن يعلوا فطخوني

وعلى الرّغم من حصول الشّاعر على الأمان وحُسن الجِوار إلاّ أنّه ظلّ توّاقاً إلى البلد الأمين مكّة مَسقط رأسِهِ وإلى الأهل، فلم يجد وسيلة يُضمِّنُها أشواقه وأحاسيسه، وعواطفه، وأشجانه في أرض الهجرة، ويبعثُ بها إلى مكّة سوى هذه الرِّسالة التي يصف فيها حالهُ وحال جميع الذين هاجروا معه من اشتياقٍ وحنِينٍ لها، وعيشٍ كريمٍ في أرض الحبشة مع حريّةٍ مُطلقةٍ في مُمارسةِ العباداتِ دون قهرٍ أو ظُلمٍ. [1]

2) . الحنِين في العصر الأموي:

ومع مُضِيِّ الزّمن واتّساع رقعة الدّولة الإسلاميّة اتّضحت وتأصّلت معالم الوطن والانتماء إليه «وكلّما تقدّم الزّمن صارت صورة الوطن تتّضحُ فيحنُّ إليها الشّاعر وهذا الحنين ليس وقفاً على الدِّيار. الدّارسة كما هو الحال في أكثر الشِّعر الجاهلي، وإنّما للوطن في سعتِه وشُمولهِ وجمال أرضِه ومراعِيهِ». [2]

أي أنّهُ لم يعُد ذلك البُكاء العابر على الدِّيار والأطلال الذي كان غالباً ما يفتتِحُ بِهِ الشّاعر الجاهلي قصيدته، بل تعمّق وأخذ مَنحاً آخر في حياة الشّاعر فصار الثّابت الدّائم في قلبِه وروحِه. والذي لا يُمكن الخروج منهُ أو الابتعاد عنه.

---

[1]- يُنظر، محمد مهداوي، شعر الغزوات أيّام الرّسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أغراضهُ وخصائصُه الفنّيّة. ص66.

[2]. يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشِّعر العربي، الحنين إلى الأوطان. ص51.

ومن أمثلة الحنين إلى الوطن في "العصر الأموي" "عمر بن مضاض الأصغر الجرهمي" والذي كان من قبيلة "جرهم" في "مكّة" التي تحكم أهل الكعبة، والتي نازعها "بنو بكر بن عبد مناه بن كنانة" وخُزاعة "، فقاتلوا "جرهما" وأخرجوها من "مكّة" فقال هذا الأخير في الابتعاد عن وطنه ومعاناة ألم الفراق. أبياتاً تُصوّرُ ذلك. [1]

كأنْ لمْ يكُن بين الحُجون إلى الصّفا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكّةَ سامِرُ

فقلتُ لها والقلبُ منّي كأنّما يُلجْلِجُهُ بيْن الجناحيْن طائرُ

بلى نحنُ كُنّا أهلها، فأزالنا صُروفُ اللّيالي والجدود العواثِرُ

وأبدَلَنا ربّي بِها دارَ غُربةٍ بِها الجُوعُ بادٍ والعدوُّ مُحاصِرُ

وكُنّا وُلاّةَ البيْتِ من بعْدِ نابتٍ نطُوفُ بِباب البيْتِ والخيْرُ ظاهِرُ

وأخرجَنا مِنها المَليكُ بِقُدرةٍ كذلك بالنّاسِ تجري المَقادِرُ

فصِرنا أحادِيثاً وكُنّا بِغِبطةٍ كذلكَ عضتنا السّنونُ الغوابِرُ

وسَحتْ دُموعُ العيْنِ تبكي لبدة بها حرم أمن وفيها مشاعِرُ. [2]

أفصحتْ أبياتُ الشّاعر عنِ الوضع الذي آل إليه فبعدما كان من أهل مكّة صار غريباً عنها بِحُكم البُعد والوضع المَفروضِ قصراً عليهِ من طرفِ العدوّ، فيصف حالهُ وحالَ أنظارِهِ من بنِي "جرهم" من غُربة وجوعٍ وحِصارٍ، وكذا طول مدّة النّفي بعيداً عن أمّ القُرى. ورغم تطوّرِ الحياة في العصر الأموي، وترسيم حدود الدّولة الأمويّة الإسلاميّة وبنائها على نظام الخلافة الوراثيّة، إلاّ أنّ الابتعاد والحنين بقي بل زاد. وهذا بسببِ النُّزوح عن الوطن لطلب الرّزق أو اتّقاء

[1]. يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشّعر العربي، الحنين إلى الأوطان، ص51.

[2] يُنظر المرجع نفسه. ص51.

ظُلم الوُلاّةِ ويطشِهِم كما أشرنا سابِقا، قبيلة "بنو جرهم". والحُروب التي كثُرت بِسَبَبِ الفُتوح، أو الحُروب الدّاخليّة في الصِّراع على الخلافة وظُهور الأحزاب، وفي المُقابل كثُر الشِّعر الذي يذكر الغُربة والاغتِراب والحنِين إلى الوطن والأهل، وقلّما نجِدُ شاعِراً يخلو ديوانه من ذكر الغربة والشّكوى من النّأيِ والبُعدِ عن الأهل والخِلاّن. [1]

"فأبو دهبل الجمحي"(ت63هـ) يصفُ في بعض أبياته غُربته وحنِينُهُ، وسببُ رحيله الذي كان جراء الفاقة والحاجة والفقر:

أفِي كُلِّ عامٍ غـربةٌ ونـزوحُ أما للنّوى من ونيّة فتـريـحُ

لقد طلح البَيْنُ المُشتُّ ركائبي فهل أويْـن البيْنَ وهـو طليح

وأرّقني بالرّي نَوْحُ حَمامةٍ فنُحتُ وذو البثِّ الغريب ينوحُ

على أنّها ناحتْ ولم نَذرِ دمعة ونحَتْ وأسرابُ الدّموع سُفوح

وناحتْ وفرخاها بحيثُ تراهما ومن دون أفراخِي مهامةً فِيحُ

ألا يا حَمَامَ الأيْكِ إلْفُكِ حاضِرُ وغُصنُكِ مَيّادُ فَفِيمَ تَنُوحُ

أفِقْ لا تنُحْ من غير شيء فإنَّني بكيْتُ زمانا والفؤادُ صحيحُ

ولوعا فشِطتُ غربة دار زينب فها أنا أبكي والفؤادُ قريحُ

عسى جودُ عبد الله أنْ يَعْكِسَ النَّوى فتَضْحى عَصَا التِّسيارِ وهي طريحُ[2]

---

[1] يُنظر، يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشِّعر العربي، الحنين إلى الأوطان. ص 52.

[2] أبو دهبل الجمحي، الديوان، رواية أبو عمرو الشّيباني، تحقيق عبد العظيم عبد الحسن. مطبعة التّضاد في النجف الأشرف البصرة العراق (1392هـ،1972م)، (ط،1). ص.76.

في هذه الأبيات يُوضِّحُ" أبو دهبل الجمحي" سبَبِ نُزوحهِ عن وطنه ـ الفقر ـ فهو يرى أنّ الغِنى يُقرِّبُ المسافات والفقر يبعدها، وكذلك يظهر في طياتها مُعاناته مع البُعد والحنِين والاشتِياق ولوعة فِراق دارهِ وخلانِهِ وأحبابِهِ.

ومن أسباب الابتعاد عن الوطن كما تمّ الذكر الخروج في حملات الفُتوحات فمن بين الشُّعراء الفاتِحِين والذين ماتوا خارج حدود أوطانِهم "الصّمة بن عبد الله القشيري" والذي خرج مع الجيش الإسلامي الفاتح إلى بلاد " الدّيلم"(إيران حاليا). فمات في "طربستان" فرُوِيَتْ عنهُ بعضُ الأبيات التي قالها في حُبِّ الوطن وحنينه إليهِ قبل استشهادِهِ. [1]

تعزَّ بصبْرٍ لا وجُدُّكَ لا تَرَى بشام الحمى أخرى اللّيالي الغوائر

كأنّ فؤادي من تذكرة الحمى وأهل الحمى يهفو به ريشُ طائر. [2]

أودع "الصّمة" في هذين البيتيْنِ مشاعر الاشتياق ودفقة الحنِين الأخيرة قبل أنْ يُفارق الحياة مشاعر اللّوعة إلى الشّامِ وأرضِها ويذكرُ أهلها وأهلَهُ، ويُرفرِفُ قلبَهُ حِين يتذكرُها.

وكذا" مالك بن الريب"(ت60هـ)، قد ارتبطت أشعارُهُ بالحنِين والاشتياق للوطن، فهو أحد الشُّعراء الفاتحين وقد قال بعض الأبيات أثناء احتضاره بسبَبِ إصابتِهِ أثناء عودتِه من خرسان، حيثُ تخيل فيها بقاؤه وحِيدا بعد تركه وحالة أهله أثناء تلقِّيهِم نعيِه واستشهادِهِ. [3]

---

[1] يُنظر، يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشِّعر العربي، الحنين إلى الأوطان، ص66.

[2]. الصّمة بن عبد الله القشيري، حياته وشعرُه، جَمعهُ وحقّقهُ وشرحهُ عبد الرّؤوف الحبر خالد، جامعة البتراء، عمان، الأردن 2003(د.ط) ص37.

[3] يُنظر، المرجع السّابق، ص67

حيثُ يقول مالك فيهم:

غريبٌ بعيد الدّار ثاوٍ بقفرةٍ يدُ الدّهر معروفا بأن لا تُدانيا

تحمَّل أصحابي عشاءً وغادَروا أ خائفةً في عُرضة الدّار ثاوِياً

أُقلِّبُ طرفِي حول رِحلي فلا أرى به من عُيون المؤنسات مراعيا

وبالرّمل منّاَ نِسوةٌ لو شهِدْنَني بكيْن وفديْن الطّبِيب المُداويا

وما كان عهد الرّمل عِندي وأهلَهُ ذمِيماً ولا وِدّ عْتُ الرّمل قاليا

فمِنهنّ أمّي وابنتاي وخالتِي وباكية أخرى تهيّجُ البواكيا [1]

فالشّاعر يرثِي نفسَهُ في لحظاتِهِ الأخيرة، ويصِف حالهُ التي آل إليها من بُعدٍ عنِ الدِّيار وفِراقٍ أبدِيٍّ لم يحظ بعودةٍ تُذِيبُ جليد غربتِهِ، ولن يحظ بِها.

وفي أبواب العشقِ والعُشّاق نجدُ نوعا من الحنين إلى الوطن ومقاساة لألمِ الغُربةِ وهذا رغم وُجودِهِم في قلبِ دِيارِهم وصحنِ قبائلِهم، وكَنَفِ عائلاتِهِم" كقيس بنُ المُلوّح"(ت68) الذي كان من أكثر الشُّعراء العُشّاق الذين قاسوا من الحنين والغُربةِ، وحفِل دِيوانهُ بالشّكو ى من حِيرتِهِ وحنِينهِ واغترابِهِ وشدّة ما يشعُرُ بِهِ من غُربةٍ في قومِهِ يُكرّرُ في شِعرِهِ كلمة "غريب". [2]

---

[1] . مالك بن الربب، ديوان حياته وشعره، تحقيق، نوري حمودي القيس، مجلّة معهد المخطوطات العربيّة، المجموعة 15، الجزء 1 ص95،96.

[2] .يُنظر، يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشّعر العربي، الحنين إلى الأوطان. ص78.

أظلُّ غريبَ الدّار في أرض عامِر ألا كُلُّ مهجورٍ هُنالك غريبُ

أُحبُّ هُبوط الوادِيَيْنِ وإنّني لمُشتهِرٌ بالوادِيَيْنِ غريبُ

ومُستَوحِشٌ لمْ يُمسِ في دار غُربةٍ لكنّهُ ممّن يوّد غريبُ

فلا تحسبي أنّ الغريب الذي نَأى ولكن من تنأيْنَ عنهُ غريبُ

فُؤادي بيْنَ أضلُاعي غريبٌ يُنادي منْ يُجِيبُ فلا مُجيبُ[1]

رغم عدم ابتعاد " قيس" عن أرضِهِ ووجودِهِ في قبيلتِهِ وأهلهِ إلاّ أنّهُ يرى نفسهُ غريباً، ويحسُّ بالحنين والاشتياق فهو يرى الحنين في البُعد عن أرض عامر بل يراهُ في البُعدِ عن محبوبه، فإذا كان بعيداً يُصبِحُ غريباً وأجنبيّاً وإنْ كان من بني عامرٍ في مَعقلِهِم وأرضِهِم.

3) . الحنينُ والغربةُ في العصر العبّاسي:

أمّا العصر العبّاسي فقد شهِد نوعاً منَ الاستقرار والاتِّساع مُقارنةً بالعصر الأموي وصدر الإسلام، وكذا التّمدُّن والتّطوّر وتجانس الثّقافات الأخرى مع الثّقافة العربيّة الإسلاميّة ممّا ساهم في خفت صوت الحنين والاشتياق بعض الشّيء. إلاّ أنّه لم ينفِ وُجودهُ في دواوين شعراء العصر العبّاسي، وتعدّدت أسباب حُضورِهِ من هجرة لطلبِ الرّزق، أو اتِّقاء جُور الحُكّام، أو الخروج في حركات الفتوحات. [2]

---

[1]. قيس بن المُلوّح، مجنون ليلى، الدِّيوان، رواية أبي بكر الوالي، دراسة وتعليق عبد الغني يسرى، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، (1420هـ، 1993 م)، (ط1)، ص61.

[2]ينظر، يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشِّعر العربي، الحنين إلى الأوطان.ص103.

كما ظهر نوع من الشّوق والحنين إلى البادية بِحُكم حركة التّمدُّن التي عرفها العصر، ومن بين الشُّعراء الذين أبدوا شوقهم إليها "ابنُ ميّادة" (ت149هـ) والذي نظّم أبياتاً في اشتياقه إلى ديار قيس وباديتِها.

ألا ليْت شِعري هل أبِيتن ليلة بحـرة ليلى حيثُ ربتـني أهلـي

بلادٌ بها نيطت على تمائمـي وقطعن عنّي حيثُ أدركني عقلي

وهل أسمعْنَ الدهر أصوات هجْمَةٍ تُطالعْن من هجْل حفِيٍّ إلى هجْلِ

صجية صفراء تُلقي رباعهـا بمنعـرج الصمّان والجـزع والشَّهـل

تَحن فأبكي كلّما ذرَّ شـارفٍ وذلك على المشتاق قتلٌ من القتل

فان كنت من تلك المواطن حاسبي فأيسر على الرِّزق وأجمع إذا شملي[1]

حيثُ يبكي الشّاعر هنا مسقط رأسه ومكان تربيتِهِ، ومظاهر العيش في قبيلتِه السّابقة من مُتّسعٍ في الأرض ورحابة بها وكذا ملكهم للإبل وكثرتها.

ونذكر أيضاً الشّاعر "يحيى بن طالب الحنفي"(ت180هـ)، والذي ركبه الدّين فاضطرّ إلى الخُروج من أرض بلده[2] فقال في هذا الباب:

ألا هل إلى شمِّ الخُزامى ونظرةٍ إلى قرقرة قبل الممات سبيل

فاشرب من ماء الحُجَيْلاءِ شَربَةً يُداوي بها قبل المماتِ عليلُ

[1] . ابن ميادة، الديوان، جمع وتحقيق حنا جميل حداد، مراجعة وإشراف قدري الحكيم، مطبوعات مُجمّع اللّغة بدِمشق، سوريا (1402هـ.1982م)، (د.ط)، ص74.

[2] يُنظر، يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشِّعر العربي، الحنين إلى الأوطان ص105.

فيا أثلاث القاع من بطن توضِّحُ حنِيني إلى أطْلا لكِنْ طَويلُ

ويا أثلاث القاع قلبي مُوَكَّلٌ بكُنَّ وصبري بِكن قَليلُ

ويا أثلاث القاع قدْ ملّ صُحبتي مَسِيري فهل في ظِلكنّ مَقِيلُ

أريدُ انصبابا نَحْوَكُم فيَهِدِنِي ويَمنَعُنِي دَيْن عليَّ ثَقِيلُ

أحدِّثُ نفسي عنك أنْ لسْتُ راجعَا إليكَ فحُزْنِي في الفُؤادِ دَخِيلُ [1]

يستحضرُ الشّاعر في مُخيلتِهِ أماكن من أرضِهِ "مكّة" ويتمنّى المُكوث فيها وزيارتِها، ورغبةً في النّظر أو المشي، أو التّمتُّع بها. وبخيراتِها.

ونجِدُ أيضاً "علي بن الجهم "(ت243هـ) والذي تمَّ ابعادُهُ عن وطنِهِ بفِعل كيد الخُصومِ، وغضبِ السلطان حيث كان معروفا بمَدحِهِ "للمُتوكّل "في مجالسِهِ وذا خُصومٍ في أقرانِه الشُّعراء أمثال:" البحتري"،" الحسين بن الضّحاك" "مروان بن أبي الجنوب"، وغيرِهم فكانوا يكيدون لهُ ويكيدُ لهُم، فانتهت هذهِ الحربُ بفوزِهِم من خلال تشويهِ صورتِهِ عند السُّلطان حيثُ زعموا أنّهُ يطعنُ على الخليفة ويُعيبُهُ ويُزري بالخلافةِ، فسجنهُ "المُتوكّلُ "في البِدايةِ ثُمّ نفاهُ إلى "خرسان" بعد مُصادرةِ أموالِهِ. [2] فيقولُ:

يشتاقُ كلُّ غريبٍ عندَ غُربتِهِ ويذكُرُ الأهلَ والجيرانَ والوَطَنَا

---

[1] يحيى بن طالب الحنفي، حياته وشعره، تأليف محمد بن ناصر الدخيل، طباعة ونشر الإدارة العامة للثّقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، المملكة العربيّة السّعوديّة، (1421هـ ،2000م). (ط1). ص134/131.

[2]. ينظر، يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشِّعر العربي، الحنين إلى الأوطان.ص112

وليْسَ لِي وطنٌ أمسَيتُ أذكُرُهُ إلاّ المَقابِرُ إذْ صارتْ لهُم وطنا[1]

ويقول أيضاً:

أشتاقُ لأهلي وأوطاني وقد ملكتُ دوني وأفنى الرّدى أهلي وأحبابي

فأستريح إلى رؤيا القُبُور فَفِي أمثالها حلَّ إخواني وأترابي

ولسْتُ أحْيا حياة أسْتلِذُّ بِها من بعدهم ولحاقُ القَوم أولى بِي [2]

شبّهَ الشّاعر حياتهُ بعيداً عن وطنه وأهلهِ بالموتى وهدوء القُبور، حيثُ صارت معدومة الطّعم واللّون بعدما تمَّ إخراجُهُ قصراً من حاضرة المدن ومنارة الدّولة العبّاسيّة.

"أبو فراس الحمداني"(ت357هـ) ،وهو ابن عمّ سيفُ الدّولة والذي ظلّ يَنْظُمُ في الحنِين إلى الوطن والاشتياق لِما عاناهُ من بُعدٍ عنهُ وغربةٍ في الأسرِ ،حيثُ كان فارِساً لهُ كلُّ عامٍ غزوة في بلاد الرومِ في سنة ثلاث مائة وواحد وخمسون أُغِيرَ على مدينةِ حلب، وقاتلهُم سيفُ الدّولةِ لكنّهُ هُزِمَ، ثُمّ أسر "أبو فراس "وأخذِهِ إلى "القسطنطينيّة" حيثُ طالت مُدّة سِجنِهِ أكثر من عامَيْنِ فكتب في باب الحنين إلى وطنه قصائد كثيرة عرفت بالرُّوميّات، والتي يستنجِدُ فيها بابنِ عمّهِ لإنقاذه من سِجنِ الغُربةِ والأسر. [3]

[1] علي بن الجهم، الديوان، تحقيق خليل مردم بك، منشورات دار الأفق الجديد، بيروت لبنان(1989م). (ط2)، ص96.

[2] . يُنظر المرجع نفسُهُ. ص97.

[3] . يُنظر، يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشِّعر العربي، الحنين إلى الأوطان. ص 121 . 122.

فيقول في بعض أبياتهِ:

دعوتُكَ للْجَفْنِ القَرِيحِ المُسْهَدِ لدي وللنّومِ القليلِ المُشرّدِ

وما ذاكَ بُخْلا بالحياةِ وإنّها لأوّلِ مبذُول أوّلِ مُجنّدِ

وتأبى وآبى أنْ أمُوتَ مُوسّدَا بأيدِي النّصارى موت أكمُدَ أكبَدِ

نضوت على الأيّام ثوب جلادتي ولكنّني لم أنُصَّ ثوب التّجلّد

أُقلّبُ طرفي بيْن خِلٍّ مُكبّلِ وبيْن صفِيٍّ بالحدِيدِ مصفّدِ

دعوتُكَ والأبوابُ تُرتجُّ دُونَنا فكُنْ خيْر مدعُوٍّ وأكرمُ مُنجِدِ

فمثْلُكَ من يُدعى لكُلِّ عظيمةٍ ومثلي من يُفدى بكُلِّ مُسوّدِ[2]

يصفُ أبو فراس حالَهُ بيْنَ جُدران السِّجن، والأسرِ من أرق ووحدة وتكبُّلٍ بالحديد والأصفاد وسلبٌ لِحُريّتِهِ، كما يستنجِدُ بابن عمّهِ من خلال وصفه لَهُ، ووصفِه لحاله الذي آل إليه، ورجائه بانتهاء هذا العذاب وفكِّ هذا الأسر وكسرِهِ.

.

---

[1] . يُنظر، يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشِّعر العربي، الحنين إلى الأوطان. ص (121 . 122).

[2] . أبو فراس الحمداني، الديوان، شرح خليل الدوسي، دار الكتاب العربي للنّشر، بيروت، لبنان (1414هـ . 1994م). (ط2). ص96.

ولا ننْسَ ذِكرَ الشُّعراء الذين كانُوا ضِمنَ جُيوش الفُتوحات الإسلاميّة، والذين أعربوا عن مدى شوقِهِم وحنِينِهِم للوطن مُنذُ عصر صدر الإسلام وُصولاً إلى العصر العبّاسي، فهذا "العبّاسي بن الأحنف"(ت192هـ). والذي كان في جُند الخليفةِ "هارون الرّشيد"(ت193)، الذي يصِفُ حالهُ بَعِيداً عن أهلِهِ في خرسان التي طال مقامهُ فِيها وذاقتْ نفسُهُ بِبِلادِ الغُربةِ يصِفُها وجوُّها فأحسَّ بالحنِينِ إلى مدينة بغداد وأهلهُ. [1]

فيقولُ فِيها:

ليْتَ شِعري متى تؤوبُ إلى بغـ دادَ إنّا مُستنبطون الإيابا

منْ يكُن صائغاً بنهر أبي الجُنْـ دِ يَكُن صيغه أذى وعذابا

متى تعرفت للْهَواجِرِ مَسَـا ما بقلبي أشدُّ منها التِهاَبا

فأراني إذا تَذكرتُ مَنْ خَلَّ فْتُ خلفي لم أملك الانتحابا [2]

يستوحشُ الشّاعرُ هنا من وجوده في خرسان ومن جوّها، ويتمنّى العودة إلى بغداد ويُبدي مدى حُرقتِهِ ولوعتِهِ والتهاب الشّوق المُتّقِد في قلبِهِ نتِيجة طول الغياب والبُعدِ عنها، وعدم أُلفِه للمكان الذي هُو قابِعٌ بِهِ.

وهذا "بكر بن النّطاح الحنفي "(ت قبل 211هـ) وهو شاعرٌ مُجاهدٌ كان قبل هذا عبارة عن صُعلوك قاطع للطّريق، إلاّ أنّهُ عدَل عن هذا الطّريق، وكفّر عنهُ بالانضمام إلى صُفُوفِ جُيوش الفتح الإسلاميّةِ التي في حلوات

---

[1] يُنظر، عيسى بن فالح الرّواجبة، الحنين في الشِّعر العباسي العصر الأوّل، (132/234هـ)، رسالة مُستكملة لمتطلبات درجة الماجيستير في تخصُّص النّقد (2011) والجامعة العالميّة الزّرقاء، الأردن.ص77.

[2] العباس بن الأحنف، الدّيوان، شرح وتحقيق عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة (مصر)، (1373هـ /1969م) (د.ط). ص.34 .

(العراق)، إلاّ أنّهُ ما يلبثُ أنْ يمكُثَ هُناك حتّى يستولي عليهِ الحنين والشّوقُ إلى مدينة بغداد، أهلِها، وكذا ما يُعانِيهِ ويُقاسِيهِ من قساوة المعارك في يوم العيد إلاّ أنّهُ يتمنّى لخلاّنهِ الاستمتاع بِبَهجتِهِ. [1] .

فيقول في هذا الباب:

هنِيئاً لإخواني بِبَغدادَ عِيدهم وعيدي بحلوات فراغ الكتائب [2]

يُعربُ بهذا البيت عن مدى اشتياقهِ لإمضاء الوقت مع خِلانِهِ في مثل هكذا مناسباتٍ، ويستوحش البُعد والنّأيَ عنهُم في هذه الأوقات.

وقولُهُ أيضاً:

فَيَا حبّـذا بَـرُّ العراقِ ونهـرُها وما يجتـبي فيه مِن الثّـمراتِ

كفى حُزناً ما تحمل الأرضُ دونها لنا من ذَرَا الأجبالِ والفلـوات [3]

ويُبيّنُ الشّاعرُ في هذينِ البيتَيْنِ مدى حنِينه وشوقِهِ لأرضِ "العِراقِ"، وذلك من خلال تمنيه وتحسُّرِهِ عليها وحتّى شوقهِ لبَرّها ولِما تحمِلُهُ أرضُها من خيراتٍ فهو في نظره جنّةُ اللهِ فوق أرضِهِ، ولا يستبدِلُها بأرضٍ أخرى مهما كانت صِفاتُها.

---

[1] يُنظر، عيسى بن فالح الرّواجبة، الحنين في الشِّعر العباسي العصر الأوّل (132.234هـ)، ص78.

[2] بكر بن النطاح الحنفي، الدّيوان، صنعة حاتم صالح الضامن. مطبعة المعارف، بغداد، العراق، (1395هـ /1975م)، (د، ط) ص8.

[3] المرجع نفسه، ص09.

ويستدعينا هذا السّياق كذلك لذِكرِ" محمد بن أبي محمد اليزيدي"(ت214هـ)، الذي كان قائداً محاربا قد تمَّتْ توليتُهُ من طرف الخليفة "المأمون" "مصرَ" من أجلِ مُحاربةِ الثّائرين بها فنفّذ الأمرَ مُكرهاً لشعوره بالابتعاد عن الأهل والوطن، حيثُ تمكنتِ الغُربةُ من قلبِهِ. [1]

فيقولُ:

يا قَصْرَ الكُرخِ إنْ عِنْدَكُم غريقُ شَوْقٍ مُجرجعُ أسقام

لَمْ تخُطّ سَهْم مُهْجَتِهِ شُلَّت يَمِين الفِراق من رامِ

أذوبُ شوقاً حتّى إذا اتّصلت جفُون عيني بطول شِجام [2]

يَغرَق الشّاعر في نشر شوقه إلى وطنه الذي غادرهُ مُكرهاً طاعةً للأوامر إلاّ أنّهُ لم يستسغ فكرة الابتعاد عنهُ حتّى ولوكان في سبيل مصلحة الأمّة.

4) . الحنِينُ في العصر الأندلسي:

كانت فيما مضى بغداد عاصمة للدّولة ومركزاً ومنارةً للحضارة العبّاسيّةِ، وفي المُقابِلِ كانت الأندلس وعاصمتُها قُرطُبة قاطبة للحضارات والشُّعوب في القارّة الأوروبيّةِ ومُجمّعاً للعُلومِ والآدابِ، والفُنونِ والعُمران والجمال بكلِّ ما تعنِيهِ الكلمة من معنى، ولأنّ دوام الحالِ منَ المُحالِ، ولكُلِّ شيء إذا ما تمّ نُقصانُ. شاءتِ الأقدارُ أن تسقُطَ هذِهِ القاطبة وهذا الحِصنُ في أيدي الصّليبيين، والنّصارى.

---

[1] . يُنظر، عيسى بن فالح الرّواجبة، الحنين في الشِّعر العباسي، العصر الأوّل (132.234هـ)، ص86.

[2] . يُنظر، المرجع نفسُهُ. ص 87.

فقُدِّر على أبنائها أنْ يعِيشوا مِحنةَ الاغتِراب بِسبَبِ اضطرارِهم للرّحيل عنها اتِّقاءً للظُّلمِ والعذابِ والهوانِ مُخلِّفِين وراءهم وطنا مُغتصَبًا، وأحبابًا مُعنَّفين إلى غيرِ رجعةٍ ليتلاطَمُوا بيْن البُلدان والصّحاري ويذوقوا مرارَةَ التّشتُّتِ والضياع، فبعضُهُم لجأ إلى المغرب وبعضُهم الآخر رسا في المشرِقِ. فكانت تجربة البُعد عن الوطن عميقة في نفوسِهم فتمخّضَ هذا الشُّعور في شكل قصائد تُنبِئُ عن مدى ألمِهم ومأساتِهِم. [1]

نذكُرُ على سبيل المثال بعضًا من شُعراء صقلِّية الذين فارقُوها على مضاضةٍ وألمٍ "كابن حميديس "الذي بقي مُتمسِّكاً بوطنِهِ مُتلهِّفًا للرُّجوع إليهِ رغمَ طول السُّنون التي لم تزدْهُ إلاّ قُوّةً. [2]

فيقُـولُ:

حُكمُ زمان مالَهُ كيْفَ يَحكُمُ يُحرِّمُ أوطاناً عليْنا فتَحْـرُمُ

لقَدْ أرعبتني غُربةٌ البين غُربة إلى اليوم عن رسم الحمى بِي ترسم[3]

يشتكي "ابن حميديس " من الزّمن الذي حَكمَ عليْهِ بالهِجرةِ، والنُّزوحِ، وابتعاده عن وطنه وابتلائه بالغربة والشّوق الشّديد، وعدم قُدرتِهِ على إطفاء نارِ هذا الشّوقِ.

وقولُهُ أيضًا في وصفِهِ وتذكُّرِهِ للمكان الذي قضى به أيّام طُفولتِهِ:

ألاَ في ضَمان اللهِ دار بَنُوطُسَ ودَرَّتْ عليها مُعصِراتُ الهوا ضب

أُمثِّلُها في خاطِري كُلَّ سَاعةٍ وأُمْري لها قطْرَ الدُّموعِ السَّواكِبِ

---

[1] يُنظرُ، عيسى فوزي، الشعر الأندلسي في عصر الموحّدين دار الوفاء لدنيا الطِّباعة والنّشر 2007م . مصر.(ط1). ص156.

[2] يُنظرُ، عيسى فوزي، الشعر العربي في صقلّية القرن 5ه، دار الوفاء لدُنيا الطِّباعة والنّشر.2007. مصر. (ط1). ص206.

[3] - ابن حميديس، الدّيوان، قدّمهُ وحقّقهُ إحسان عباس، دار صادر للطِّباعة والنّشر، بيروت لبنان ،1960م.(د.ط). ص408.

أحِنُّ حنِينَ النّيب للموطن الذي مَغاني غوانيهِ إليه جواذِبي

ومنْ سار عنْ أرضٍ ثَوى قلبُهُ تَمنَّى له بالجِسم أوْبةَ آيِب [1]

يستودعُ" حميديس" دار طُفولتِهِ في حِمايةِ الله ورِعايتِهِ، وهذا ما يظهرُ جليًّا في بدايتِها، كما يعترِفُ بِكونِها المُسيطِرة على تفكيرِهِ وخاطره، ويُبدي شوقهُ إليها بِعبراتِهِ التي تُمزِقُ قلبَهُ كما يتمنّى العودةَ والرُّجوع إليها والعيشَ في حِماها.

ويقُولُ "جعفر بن الطّيب الصِقلّي" أيضًا في لوعة الفِراق:

عظيمُ اشتِياقي والنّوى أبَتِ النّوائي والوصول

واللهُ يَعلمُ صِدقَ ما تحْتَ الضُّلُوعِ وما أقُولُ

عِشرون عامًا فُرقةً هيهاتَ ما يفنى الرّسول. [2]

يذكرُ الشّاعرُ هنا طول المُدّةِ التي فصلتهُ عن صقلّية، ورغم هذا أبى فُؤادُهُ أنْ ينساها ويتمنّى قُربها ورؤياها، إلاّ أنّ هذا ليسَ في الإمكانِ حيثُ أضحى هذا صَعبُ المنال.

كان حنِينُ الشُّعراء للوطن الأمِّ الأندلُس حنِينًا جماعيًّا، وصار تِلكَ الجنّة التي حُرِمُوا من نعِيمِها وفردَوْسِها، بِسَبَبِ استِلاء العدوّ على مُدُنِها وحُصونِها، وقِلاعِها فنجِدُ في أشعارِهِم ذلك الحنين الممزوج بالاستصراخ والاستِنجادِ

[1] ابن حميديس، الدِّيوان، قدّمهُ وحقّقهُ إحسان عباس. ص33.

[2] . عيسى فوزي، الشعر العربي في صقلّية. ق 5هـ . ص 206.

وتحفيز الهِمَم، وإثارة المشاعر "فابن الأبّار"، الذي أُرسِل وأُخرِجَ من وطنه وقَدِمَ إلى حاكم تونس لاستنجاده لإنقاذ "بلَنْسِيَّة"، حيثُ لم ينسَ جنَّتَهُ التي كانَ يعيشُ فِيها فأخذ في إثارة مشاعر المسلِمِين من أجل تحريرِها مُتحسِّرًا على ما حلّ بِهِ فقصِيدتُهُ السِينيّة الشّهِيرة عبارة عن مرآة عاكسة لذلكَ الواقِع. [1].

فيقُـولُ:

يا للجزيرة أضحى أهلُها جُزُرًا للحادِثاتِ وأمْسَى جدُّها تَعِسَا

في كُلِّ شارِقةٍ إلمامُ بائقةٍ يعود مأتمُها عنْدَ العِدى عُرسَا

وكُلُّ غاربةٍ إجحافُ نائبةٍ تُثنِي الأمان حِذارًا والسُّرور أسى.

تقاسم الرُّومَ لا نالتْ مقاسِمهم إلاّ عقائلُها المحجوبة الأُنْسَا

وفي بلَنْسِيَة منْها وقُرطبة ما ينسفُ النّفس أو ما ينزِفُ النّفسا

مَدائنٌ حلّها الإشراكُ مُبتَسِمًا جَذْلانَ وارتحل الإيمانُ مُبتَئِسَا[2]

يُبيّنُ الشّاعرُ تحسُّرَهُ وأسَاهُ على وطنِهِ الضّائع، واستِنجادِهِ بِحاكِمِ تُونس لِفكِّ الحِصارِ عليها، ويصِفُ ما حلّ بِها فبعدما كانتْ جزيرةً للخيْرِ والإسلامِ صارتْ مرْتعًا لأعداء الدِّينِ الحنِيفِ، وتشرُّد أهلِها وتفرُّقِهم في بقاعِ الأرضِ. كما أنّهُ يصفُ سُقُوط مُدُنِها وتكَالُبِ الرُّومِ عليها.

---

[1] . يُنظر، محمد أحمد دقالي، الحنين في الشِّعر الأندلسي (القرن السّابع هِجري). دار الوفاء للطِّباعة والنّشر، الاسكندريّة، مصر،2003م.(ط1) . ص245.

[2] . ابن الأبّار القذاعي البلنسي، الدِّيوان، قراءة وتعليق عبد السّلام الهراس، وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميّة، المغرب (1420هـ ،1999م)، (د، ط). ص408.

كما في أبيات أُخرى يُهولُهُ حالُ الأسيراتِ المسلماتِ كذلكَ حالُ المسَاجِد التي أضْحتْ كنائس وتمَّ إبدال الأذانِ فيها بأصواتِ الأجراسِ والنّواقِيسِ، فيعْرِضُ الشّاعِرُ هُنا قضيّةً مُهِمّةً ويُثِيرُها أمام الحاكم باعتبارها قضيّةَ الإسلام والمُسلِمِينَ. [1]

حيثُ يقُولُ:

يا حسْرتِي لِعقائل مَعقولة سَئِم الهُدى نحو الضلال هِداءَها

كَيْفَ السَّبِيل إلى احتِلال معاهِد شبَّ الأعاجِم دونها هيجاءَها

بأبي مَدارسَ كالطُّلول دوارِس نَسختْ نَواقيسُ الصّلِيبِ نِداءها

راحتْ بِها الورقاء تُسمِعُ شدْوَها وغدتْ تُرجِّع نوْحَها وبُكاءَها[2]

حيثُ يتحسّرُ على الحال التي آل إليها المسلمون العرب بعدما كانوا سادةَ، أصبح نِساؤهُم في الأسْرِ، وكذا المعاهد والمساجد التي أضحتْ كنائِسَ ومراكزا للصلبان وبعدما كان يُسمعُ شدَاها صار يُسمعُ بُكاؤها وأنِينُها.

ويقولُ "حازم القرطاجني "في باب الوطن والخُروج منهُ:

إنّ ثَواءَ المَرءِ في أوطانِه عِزٌ وما الغُربة إلاّ كالنَّوى

وقلّما بَانَ امْرُؤٌ عن أرضِه إلاّ وبَانَ الصَّبرُ عنْهُ ونَأى

فقدْ تَشْكِي ابنُ مَضَاضٍ مُضَضًا من شَوقِهِ إلى الحُجُون والصَّفا

---

[1] يُنظرُ، محمد أحمد دقالي، الحنين في الشِّعر الأندلسي (ق7هـ). ص 246.

[2] ابن الأبار القذاعي البلنسي، الدِّيوان، قراءة وتعليق عبد السّلام الهراس.ص36.

وكابد الشّوق بلال ويرى جُثمانه عن السِّقام ما يرى [1]

يرى حازم القرطاجني أنّ الخروج من الوطن مذلّةٌ والبُعدُ عنهُ هوانٌ، فالبقاءُ فِيهِ أشرفُ من الهِجرةِ وتركِهِ للأعداءِ وكذا كبتُ الشّوقِ إليهِ مرضٌ وسِقامٌ ولا يُمكِنُ الشِّفاءُ منهُ إلاّ بالرُّجوعِ إليهِ.

من المواضيع التي أدرجها الشُّعراء الأندلُسِيين في قصائد الغُربةِ والحنِين إلى الوطن تلك الآلام، والمتاعب التي تعرّضوا لها في أرضِ الهِجرة من خلال وصفِهم للمُعاملة الجافية التي قُوبِلوا بها في أرضِ المشرِق، وتلك الصِّفةُ التي أُلصِقت بِهِم ،"صِفة المغرِبي "التي كانت في نظرِهم تقترنُ بالخُشونة والجفاء، وتُمَيِّزِهم وتفرُّقِهِم عن أهل المشرق، رغم أنّهُم ينتمُون جمِيعًا إلى دِيانة الإسلام وحتّى صِفة العُروبةِ.

ويُعبِّرُ "ابن سعيد" عن مشاعر الضِّيقِ التي تنتابُهُ حين يُوصفُ بِتلك الصِّفة، كما يصِفُ آلام الغربة التي يُعانِيها ويشكو منها في مصر.

فيقولُ بعد وصفِهِ لِحالتِهِ السّابِقةِ التي كان عليها في وطنِهِ. [2]

هذِهِ حَالتي وأمّا حالتِي في ذرا مصر فَفِكري مُتعبُ

ها أنا فِيها فرِيدٌ مُهْمَلُ وكلامِي ولِسَانِي مُعرَّبُ

وأرى الألفاظ تنْبو عندما أكتُبُ الطرس أَفِيهِ عَقرَبُ؟

وأُنادِي مَغرِبِيًّا ليْتنِي لم أكُن لِلغَربِ يومًا أُنْسَبُ [3]

---

[1] محمد أحمد الدقالي، الحنِين في الشِّعر الأندلسي، (ق7هـ). ص248.

[2] يُنظر، عيسى فوزي، الشِّعر الأندلُسي في عصر المُوحِّدين. ص159.

[3] المرجع نفسُهُ. ص159.

. يشكو "ابن سعيد" في هذِهِ الأبياتِ من جفوةِ المُعاملةِ، ومن صِفة المغربِيّ التي أُلصِقت بِه في أرضِ مِصر من دُونِ رِضاهُ، ويراها كنوعٍ من أنواع التّمييز والتّفرِقةِ حيثُ يتمنّى أنّهُ لم يكُن من المغربِ لِضيقهِ ذرعًا بِها.

رغم تنوُّعِ العُصورِ ومُضِيّها بِدايةً من صدر الإسلام وُصُولاً إلى العصر الأندلُسي، ورغم الاستِقرار الذي عرفتهُ الدّولة الإسلاميّة في عُصورِها الذّهبيّةِ، إلاّ أنّ شعر الأرض والحنين والشّوقُ إليها بقِيَ حاضِراً في دواوِينِ الشُّعراء وتطوّر وتأصّل بِسَببِ الظُّروف التي عاشوها من تهجِيرٍ وظُلمٍ ونفْيٍ لأسبابٍ تَمّ ذِكرُها سالِفاً.

المبحث الثّاني: المنفى والاغتراب في العصر الحديث.

1) –العالم العربي قبل حملة نابليون على مصر:

قبل الولوج إلى ضبط المصطلح المتعلّق بالمنفى والاغتراب، علينا الولوج قبلا إلى معنى العصر الحديث والسّاحة السِّياسيّة والأدبيّة العربيّة التي كانت قبله.

يضبط العلماء بداية العصر الحديث من الحملة الفرنسيّة على "مصر" التي كانت سنة 1798 م، حيث أنّها كانت بمثابة المقدِّمة الهامّة لدخوله، فهي تلك الصدمة الحضاريّة الكبرى التي أفاق الشّرق على إثرها ليُعيد النّظر في كثير من ثوابت تفكيره، ونُظم معيشته وتدابير أحواله، ومناهج تعليمه. رغم أنّ نتائج تلك الصدمة على مستوى الثّقافي لم تبدأ في الظّهور إلاّ بعد نصف قرنٍ، إلاّ أنّهُ تمَّ الإجماعُ من معظم الدّارسين على أن يكون ذلك التّاريخ هو بدايتهُ. [1]

هنا نتساءلُ كيف كان حالُ الأدبِ قبل هذه الصّدمة؟

لقد كان الأدبُ العربيُّ في حالة استكانة «فلم تظهر حاجة الأدب إلى النِّظام في يوم من أيّام هذا العصر الحديث ظهورها الآن، فقد كان العربيُّ أوّل هذا العصر مطمئنّاً إلى حظِّهِ راضيا بحالِهِ، قانعاً أيضا بِما كانَ بينهُ وبينَ الأدب العربيّ المُنحطِّ من صِلةٍ» [2].

[1] ينظر، أحمد درويش، مدخل إلى الأدب العربي الحديث، جامعة القاهرة، مصر، (1429هـ/2008م) (د. ط)، ص13.
[2] حسين طه، حافظ وشوقي، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، مصر، 2012م، (د. ط)، ص12.

كان العربيُّ يرى أنّ أدبهُ وشعرهُ يكمنُ في الصّنعة اللّفظيّة والتّقليدِ، وهذا بسَبَبِ فترةِ الرُّكودِ التي مرّ بِها العالم العربيُّ. فبعد انتصاراتِ "صلاح الدين الأيوبي"(ت1192م)، التي حسمت جولة الصّراع لصالح العرب ضدّ الغربِ

فدخل العالم الشّرقيُّ في نوعٍ من الزّهُوّ والاعتِدادِ بالنّفسِ صاحبتها موجةٌ من الخُمولِ، أدخلتِ الشّرق في فترة العصور الوسطى الخاصّة بِهِ، غير أنّ هذِهِ الهزيمة الكبرى للغربِ كانت بمثابة الصّدمة التي جعلته يُفكّرُ في نقاط ضعفِه ويستفيدُ من مزايا خصمِهِ. [1]

وخلال هذه الفترة شهد العالمُ الإسلامي قيام قوّة عسكريّة طاغية في القرن الرّابع عشر، والتي تمثّلت في الدّولة العثمانيّة التي خلق التّوازن بين القوّة العسكريّة والحضارية، ممّا انعكس سلباً على جانب الابداع والابتكار الفكري والأدبي والثّقافي. فعندما احتلت مصر ومن ورائها العالم العربيّ، وفي بدايات القرن السّادس عشر عملت على تفريغ المُدُن العربيّةِ الكُبرى من المُبدعين، والفنّانين، والصُّنّاع المَهرةِ فنقلتهُم إلى" القُسطنطينيّة" عاصمة " الدّولة العثمانيّة". ولم يهتمَّ الوُلاّةُ الأتراك الذين حكموا البلاد العربيّة بِأمورِ التّعليم، والأدب لجهلِهِم باللّغةِ العربيّة، بل التفتُوا إلى جمع أموال الضّرائب والتّجنيد للجيشِ العثماني وخدمة مآربِهِم الخاصّة. [2]

وكذلك في المُقابل اهتمُّوا بتوسيع نِطاق الدّولة من خلال الفُتوحاتِ، أمّا الأدبُ فقد كان موجوداً في هذا العصر الحديث. وجد في العواصِمِ الحضريّة (بغداد، دويلاتُ اليمنِ، مكّة، المدينة المُنوّرةِ، دِمشق، القاهرة، حلب)، وكان التّعليم على مُستوى المساجِدِ والكتاتِيبِ، أمّا المدارِس فكانت قليلة. لأنّها لم تَعتنِ بِها طبعاً، لكنّ الجوهر . الأدب .

---

[1] حسين طه، حافظ وشوقي، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، مصر، 2012م، (د. ط) ص 13.

[2] يُنظر، أحمد درويش مدخل إلى الأدب العربي الحديث. ص13، 14.

قد كان بشكلٍ ضعيفٍ، كما قد سَطا حاشيةُ الوُلاّةِ على أوقاف المدارِسِ. ولم تَعتنِ الدّولة بالقبائلِ العربيّةِ في "الجزيرة العربية" العراق " الشّامِ" و "مصرَ" كما أنّهُم كانُوا يفرضون الإتاوات على الحجّاجِ لتأمينِهِم. فانتشر الجهلُ وعمّت العاميّةُ وأخذت الدّولة الإسلاميّة تَتَقهقَرُ حتّى سقطت الخلافةُ. [1]

وهذا الضُّعفُ أدّى إلى جعل الدّولة عُرضةً للأطماع حيثُ كانت هدفاً سهلا للحركة الاستعماريّة، والتي بدأت بحملة " نابليون بونابارت" على مصر كما قد تمَّ الذِّكرُ.

وتمّ احتلال "الجزائر" من طرف فرنسا عام (1830م . 1246هـ) . " استعمار استيطاني".

و" تونس" كانت سنة (1881م . 1299هـ) تحت الاحتلال الفرنسي أيضاً.

أمّا "المغربُ" فاحتلت كذلك من طرف فرنسا عام (1912م . 1330هـ).

أمّا بلادُ" الشّام" فكانت سنة (1920م .1338هـ) تحت الانتِداب الفرنسي.

و" مصر" وقعت تحت الانتداب" البريطاني" عام (1882م . 1300هـ)، وهذ ابعد ثورة " أحمد عُرابي " على " الخديوي توفيق ". فتدخّلت بريطانيا بِحجّة حماية رعاياها [2]

والسُّؤال المطروح هنا ما علاقة كلّ ما ذُكر بالأدب وتطوّرِهِ؟

---

[1] ينظر، مسعد بن عيد العطوي، الأدب العربي الحديث، مكتبة الملك فهد الوطنيّة، تبوك، (1430هـ /2009م) ،(ط1) ص8، ص9.

[2] يُنظر، المرجع نفسه. ص 14، ص15.

وللإجابة علينا العودة للبداية من الحملة الفرنسيّة على " مصر"، والتي جاءت في إطار خُطّةٍ فرنسيّةٍ، فكانت نيتُها الاتّخاذ منها نُقطة انطلاق لمُحاربةِ" إنجلترا "في "الهند"، والتي كانت أغلى دُرّةٍ في التّاج البريطاني، ورغم هزيمتها وعودتها من مصر. إلاّ أنّه على إثرها عرفت مصر المطابعَ لأوّل مرّةٍ، وصُدور الصُّحُف بالعربيّةِ والفرنسيّةِ. وظهرت الصّحافة العربيّة وتطورت أساليب الكتابة، إضافة إلى معرفة فنّ المسرح وما تلاه من ظهور أنشطة لازمة لها في التّرجمة أو التّأليف والتّمثيل والتّلحين، والإخراج فهُو مظهرٌ من مظاهر الثقافة الفنّيّة الجديدة التي كان لها آثارها في تطوير الأدب الحديث. [1]

واعتمد هذا الأخير في نهضته مُنذُ بدايتها «اعتمد عملين أساسيين: الأوّل إحياء الأدب العربي، والثّاني: التّرجمة والنّقل عن الآداب الأوروبيّة». [2]

إذن فبعد هذه الاستفاقة اهتمّ العربُ بترجمة الآداب الغربيّةِ ونقلها إليهِم، وبهذا نقل المذاهب الغربيّة التي كانت سائدة آنذاك، وأوّلها الكلاسيكيّة والتي تقُومُ على إحياء التُّراث القديم، وبهذا ظهر تيّار البعثُ والإحياءُ، الذي كان بمثابة مُنقذ للأدب العربيّ بصفةٍ عامّةٍ وللشِّعر بصفةٍ خاصّةٍ، فقد استرجع روح الجزالة والمتانةِ والقوّةِ من خلال مُحاكاة القُدامى. [3]

---

[1] يُنظر أحمد درويش، مدخل إلى الأدب العربي الحديث، ص 21، ص22، ص23.

[2] أنور الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريّات النّقد العربي الحديث، دار الكتاب اللّبناني للطِّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت لبنان، 1985م.(ط2)، ص125.

[3] ينظر، عبود مارون، أدب عربي، مختصر تاريخ نشأته وتطوُّرِه وسير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم، مؤسّسة هنداوي للطِّباعة والنّشر. القاهرة. مصر.(د.ت)، (د. ط) ص217.

«وفي هذا العصر ظهر الشُّعراء الذين ردّوا إلى الشِّعر حياته الأولى وأجرَوا فيه ذلك الرّوح التي كان قد خمد، عندما غلبت العناصر الأجنبيّة، والعناصر التّركيّة خاصّة على الحياة العربيّة». [1]

وقد أجمعت معظم المراجع العربيّة أنّ البارودي هو حامل هذا اللِّواء في البعث والإحياء وأوّلهُم، إلاّ أنّ الواقع أنّ "الأمير عبد القادر" كانت أشعارُهُ بِمثابة الخطوة الأولى في هذا المجال، وهذا ما سنوضِّحُه لاحقاً في الفصل القادِمِ.

رغم مُحاكاة القُدامى إلاّ أنّهُ ظهر التّجديد عند شُعراء المدرسة الكلاسيكيّة في مجال المواضيع، كان من أهمِّها ظهور الشِّعر السِّياسي وتطوير شعر المنفى والاغتراب والحنين إلى الوطن.

[1] حسين طه، تقليد وتجديد، مؤسّسة هنداوي للطِّباعة والنشر، القاهرة، مصر، (د.ت)، (د ط)، ص 43.

. الاغتراب والنّفي لُغةً واصطلاحاً:

1) . الاغترابُ لُغةً: مُشتقٌّ من لفظة " الغريب"، وهو الغامض من الكلام. [1]

والغريبُ: كلُّ شيء فيما بين حبسِه عديم النّظير فهو غريبٌ. [2]

والغرب: يوم السّقي والغرس كثير الجري، ومقدم العين ومؤخِّرها، والنّوى والبعد، كغربة والاغتراب والتّغرُّب. [3]

اصطلاحا: هي النّوى والبُعدُ والتّنحِّي عن النّاس، وغرُب في الأرض وأغْرَب صار غريباً، وكثيراً ما تكونُ الغُربةُ قسرية، بِسبَبِ ما يتعرّضُ لهُ الإنسانُ من ظُلمٍ وخوفٍ أو جوعٍ. أمّا الاغتِرابُ فهو طوعي يختارُهُ الانسانُ لأسبابٍ منها: عدمُ الانسجام مع المجتمع والعجز عن الانتماء، وعدمُ الرِّضى بالتّقاليدِ والأعرافِ والمخالفةِ في الفكر والمعاقدِ. وكثيرا ما يشعُرُ المُغترِبُ بالوِحدةِ والعُزلةِ والفراغِ النّفسِيّ. وصُورُ الاغترابِ كثيرةٌ منها: الاغتِرابُ عن الوطنِ، الاغترابُ داخِل الوطنِ، الاغتِرابُ عنِ الذّاتِ، وكُلُّها مريرة وقاسية ويشعُرُ صاحِبُها بالألمِ والوحشةِ والمرارَةِ. [4].

---

[1] . الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتابُ العين الجزء الرّابع، ترتيب وتحقيق عبد الحميد هنداوي منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، (1424هـ ،2002م). (ط1)، ص272.

[2] . أبو البقاء أيوب الحُسيني الكفوي، الكليات معجم المصطلحات والفروق اللّغوية، تحقيق عدنان درويش وآخرون، الرِّسالة للطِّباعة والنّشر، لبنان، (1419هـ ،1998م)، (ط 2)، ص663.

[3] الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب التُّراث في مؤسسة الرِّسالة، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرِّسالة للنّشر والتّوزيع، (1426هـ ،2005م). (ط2) ، ص119.

[4] يُنظر، يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشِّعر العربي الحنين إلى الأوطان، ص17.

ثانيا: النّفيُّ:

لغة: نفيتُ الرّجُل وغيرهُ نفيا إذا طردتُهُ، فهو منفيّ، ويُقالُ: معناهُ: السِّجن، و**الانتفاء** من الولد: أن يتبرّأ منهُ. والنُّفايةُ من الدّراهمِ وغيرِها: المنفى القليل مثل: البُرايةُ والنُّحاتةُ. و**نفيّ الرِّيح**: ما نفى من التُّرابِ في أصول الحيطان ونحوِهِ. وكذلكَ **نفيّ الرّحى**: ما ترامت بهِ من دقيقٍ، ونفى الشّيء، ينفي نفياً، أي تنحّى. [1]

ونفاهُ، ينفيهِ، وينفوهُ. عن أبي حيان، نحّاهُ، تنحيةً. **وانتفى**: تنحّى . والرِّيح التُّراب نفيا ونفاياناً: أطارتهُ . وما نفتهُ الرِّيحُ في أصول الشّجر من التُّراب كالنفيان. وما يتطرّف من معظم الجيشِ. [2]

اصطلاحاً: هو إبعادُ عن الوطنِ ونبذٌ ونزعٌ للأُلفةِ، والمنفى «منزلة بين منزلتين»، أحدُهُما ماضٍ صيغت ملامِحُهُ في الوطن المُبعد، والآخر وشِيك الحُدوثِ في المستقبل القريب: الموت، هكذا يكون المنفى بالنِّسبة لذلك المنفي. فهُو في أرضِ الغُربةِ ذلك الأبتر الذي لا جُذور لهُ. وبواعثُ النّفي تتمثّلُ في أسبابٍ شتّى، يجمعُها في النِّهاية فكرةُ العقاب. [3]

ظهرت ظاهرة النّفي والاغتراب ملازمة للاستعمار والتّدخُّل الأجنبي في البلدان العربيّةِ، فهو نوعٌ من العقاب الذي يكمُنُ في إبعاد أبناء الوطن الذين حملوا لِواء الدِّفاع والذّودِ عنهُ إلى أقاصي الأرضِ. بُغيةَ إزالتِهم وتنحيتِهم.

ومصاحبة لهُ ظهر هذا النّوع من الشِّعر إلى الوجود على يد مجموعةٍ من الشُّعراء الذين أُبعِدوا قصراً عن أرضهم أمثال: البارودي، أحمد شوقي.

---

[1] . ينظر، الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، الجزء الرّابع ترتيب وتحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي. ص253.

[2] يُنظر، الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب التّراث في مؤسّسة الرِّسالة إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ص 1340.

[3] . يُنظر، محمد الشّحات، سرديات المنفى، الرِّواية العربيّة. بعد عام 1967، أزمنة للنشر التّوزيع، عمان، الأردن ،2006. (ط1) ص21،22.

أوّلا: أثر المنفى في شعر البارودي:

يُعدُّ " محمود سامي البارودي "من أولئك الشّعراء العظماء الذين عرفهم الوسط العربي في العصر الحديث والذين حملُوا لواء البعث والإحياء «...فالشِّعر طفر طفرة عظيمة تستقبل بالدّهشة حين قاله " محمود سامي البارودي". فهذا أعاد للشِّعر العربي روّاءَه...ولم يختلف عن المُتقدِّمين في شيءٍ من مطلب الشِّعر. قاله مثلهم وعلى نحوهم، وزاد عليهم شيئاً من مظاهر الحضارة الجديدةِ، ووصف مخترعات العصر.» [1]

حيثُ نرى في شعره صورة عن القدماء والسّابقين مع إضافة لمسة الجديد

«... فاكتسب من الشِّعر القديم قوّة العبارة وجهارة النّغم، وحاول ما استطاع أن يكون تعبيرُهُ أصيلا. وأن يكون مضمونهُ مُنتزعاً من ذاتِ نفسِهِ وأحداث عصرِهِ، ووفّق في ذلك أحياناً كثيرة حتّى ليُذكّرُنا شِعرُهُ أحياناً بشعرِ المتنبي وما فيه من أصالة قويّةٍ يمكن أن نُحسَّ بها». [2]

ومن أحداث العصر التي عبّر عنها واندمج فيها، حدث المنفى الذي تعرّض له، والذي أكسب شِعرهُ لوناً آخر وقوّة وجزالة تُعبّرُ عنهُ.

" فالبارودي " الذي يرجع إلى أصل شركسي تدرّج في مناصب حُكم الدّولة من مدير للشّرقية إلى وزير للأوقاف، ثُمّ وزارة الحربيّة. وثار الجيشُ بقيادة "عُرابي" ثورتُهُ المعروفة سنة 1883م، فاستعان "توفيق" بمُساعدة الإنجليز ضدّ الوطن، ولمّا أخفقت الثّورة حُكِم عليهِ بالنّفيِ إلى "سر نديب" "بالهند" والتي ظلّ بها سبعة عشر عاماً. وصدر العفوُ عنهُ في 1900م. فعاد إلى وطنه حتّى توفي سنة 1902م.[3]

---

[1] عبود مارون، أدب العرب، مختصر تاريخ نشأته وتطوره، وسير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم.ص317.

[2] محمد مندور، فن الشِّعر، مؤسسة هنداوي للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر.2017(د.ط). ص73.

[3] ينظر، مجيد صادقي مزيدي، مجلّة الجمعيّة الإيرانيّة للّغة العربيّةِ وآدابها، فصلية محكمة. العدد21، شتاء (1390هـ /2011م). ص23.

وفي هذه السّبعة عشر سنة أبدع البارودي قطعاً فنيّة شعريّة ملازمة لحالته ومُعبرة عن خلجات نفسه.

فقال بعد وصوله إلى جزيرة " سر نديب " وقد رأى ابنتهُ الوُسطى في المنامِ:

تَأَوَّبَ طَيْفٌ مِنْ «سَمِيرَة » زَائرُ وَمَا الطَّيْفُ إلاَّ مَا تُرِيهِ الْخَوَاطِرُ

طَوَى سُدْفَةَ الظَّلْمَاءِ، وَاللَّيْلُ ضَارِبٌ بِأرواقه، والنَجمُ بِالأفقِ حائرُ

فيالكَ مِن طيفٍ ألـمَّ ودونَهُ مُحِيطٌ منَ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيّ زَاخِرُ

تَخطَّى إلىَّ الأرضَ وَجداً، وما لهُ سِوَى نَزواتِ الشَوقِ حادٍ وزاجرُ

ألـمَّ، ولم يلبَث، وسارَ، وليتَهُ أَقَامَ وَلَوْ طَالَتْ عَلَيَّ الدَّيَاجِرُ

تَحمَّلَ أهوالَ الظلامِ مُخاطِراً وعهدي بِمَن جادَت بهِ لا تُخاطِرُ

خُمَاسِيَّةٌ ، لَمْ تَدْرِ مَا اللَّيْلُ والسُّرَى ولم تَنحَسِر عَن صَفحتها السَتائرُ

عَقِيلَةُ أتْرَابٍ تَوَالَيْنَ حَولَهَا كما دارَ بالبدرِ النُجومُ الزَواهِرُ

غَوَافِلُ لا يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ وَلا هُنَّ بالْخَطْبِ الْمُلِمّ شَوَاعِرُ [1]

في هذه الأبيات، تركّزت عواطفُهُ في حديثِهِ عن ابنتِهِ "سميرة"، فقد زارهُ طيفُها لكثرَةِ ما يُفكّرُ فيها، ويتمنّى لِقاءها، وإنْ لم يَكُن الطّيفُ جلِيّاً، إذ جاء في ليل حالكِ الظّلام ولم يمكُث طويلا، فعلى الرّغم من البحار التي تفصِلُ بينَهُ وبين ابنتِهِ فإنّ طيفها أتاهُ مدفوعا بالأشواق، كما تدفع الرّياحُ السُّفُن إلى وِجهتِها وتحثُّها على المسير.

[1] –محمود سامي البارودي، الديوان 4/1، حقّقه وضبطه وشرحه علي الجارم وآخرون، دار العودة، بيروت، لبنان.1998. (د ط). ص.237.

والرّاءُ من الحروف الذّلقيّة كما سمّاها القُدماءُ، وهي نوعان: مُفخّمةٌ ومُرقّقة والنّوعُ الذي استخدمَهُ البارودي في قصيدتهِ، هو النّوعُ المُفخّمُ لِوقوعِها مضمومة وما قبلها مكسور. [1] . وقد استعان بها لِيُبيّن حالتَهُ التي آلَ إليها في منفاهُ وبعدُهُ عن أولادِهِ من كثرة الشّوقِ والاحتِراق على فِراقِهم.

وقال أيضاً في قصيدة يُجيبُ بعض السّادة ويخطُبُ بها مودّتَهُ:

قَلِيلٌ بآدابِ المودّة منْ يَفِي فَمَنْ لِي بِخلٍّ أصطَفِيهِ وأكتَفِي

بَلَوْتُ بَنِي الدُّنيَا فلَم أرَ صاحِباً يَدُومُ على وُدٍّ بغير تكَلّـف

فَهَلْ مِنْ فَتًى يَسْرُوعَنِ القلْبِ هَمَّهُ بِشِيمَةِ مَطبُوعٍ على المَجْدِ مُسْعِفِ؟

رَضِيتُ بِمَنْ لا تَشتَهِي النَّفْسُ قُربَهُ وَمَنْ لمْ يَجِدْ مَنْدوحَةً يَتَكلّفِ

ولَوْ أنَّنِي صَادفْتُ خِلاًّ يَسُرُّنِي على عُدَوَاءِ الدّارِ لمْ أتلهَّـفِ [2]

وقد استخدم الفاء كحرف روي، والفاء رخْوٌ مهمُوس والذي يتكوّنُ باندِفاع الهواء ماراً بالحُنجُرةِ دون تذبذُبٍ للوترانِ الصّوتيانِ، ثُمّ يتّخذُ الهواءُ مجراهُ في الحلقِ والفَمِ حتّى يصِلَ إلى مخرجِ الصّوتِ، وهُو بينَ الشّفةِ السُّفلى وأطرافِ الثّنايا العُليا. [3]

وكَسَرَهُ لِيُبيّنَ حالتَهُ التي كانت في نوعٍ من العِتابِ للّذين لم يتذكّرُوهُ، ويُشِيدُ بِأولئكَ الأصحابِ الذين أبْقَوا على المَودَّةِ رغمَ المَسافاتِ.

---

[1] . ينظر: أنيس إبراهيم، الأصوات اللغوية، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، مصر. (د ، ت) ، (د.ط). ص59.

[2]. محمود سامي البارودي، الديوان4/1، حقّقهُ وضبطه وشرحهُ علي الجارم وآخرون.ص343.

[3] . يُنظر: المرجع السّابق، ص 48

ثانياً: أثر المنفى في شعر أحمد شوقي:

يُعدُّ أمير الشُّعراء " أحمد شوقي " من الشّعراء المنفيين، والذين برعُوا في هذا اللّون من الشِّعر نتيجة الظّروف المعايشة، فشاعر القصر في عهد عباس حلمي «... قد صرف زُهاء رُبع قرن من عُمرِهِ كان فيه شاعر مناسبات طائر غرّيد في سجنٍ من ذهبٍ. يقول ما يُحبُّ أن يُقال ...حتّى سقط عرشُ مولاه. فأفلتَ الطّائرُ وانطلق يُطرِب ويُشجِي ويُغنّي». [1]

فقد كان في صباه ذلك الشّاعر المُقيد ببروتكول القصر الذي لا يُمكن أن يتعدّاهُ. فقد كان أسير الفكر في قلب الوطن. «وكان لأدبه من نفيه إلى الأندلس حظٌّ كبير، فبكى المجد العربي الدارس الخالد بقصائد كان لها صدى في العالم العربي. كلُّها شوقٌ وحنينٌ وندبٌ وبُكاءٌ للمجدِ المفقودِ» [2]

تحرّر شاعر القصر من أسْرِهِ الفِكريّ عند نفيه للأندلس إلاّ أنّهُ قُوبِل بأسرٍ للحُريّةِ بعيداً عنِ الوطنِ. لا يُمكن القولُ أنّهُ أُسِر بِمعنى الأسرِ إذا قُورِن بأسر ونفيِ البارودي، لكنّهُ يبقى لوناً من ألوانِ المنفى عانى فيهِ الشّاعر مرارة عذاب الفُراق ولوعة البعدِ عن "مِصر".

اختار شوقي منفاهُ "الأندلُس" سنة 1915، ولبثَ فيها لِمُدّةِ خمس سنوات. وقد اختار من مُدُنِها مدينة " برشلونة"، وكان سَبَبُ نفيهِ هُوَ: بعد اندلاع الحرب العالميّة الثّانية 1914. بسطت" الإنجليز" قُوّتها على "مصر". فتمّ عزلُ " الخديوي عباس" المعروف بعدائهِ لهُم، وتعيين" حسين كامل "الذي كان عكسُهُ، فتمّ تغيير الكثير من الثّوابت في القصر المصري منها: نفي "أحمد شوقي" الذي عُرِف بِحُبّهِ الشّديد للعهد القديم

---

[1] عبود مارون، أدب العرب، مختصر تاريخ نشأته وتطوره، وسير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم.ص353.
[2] المرجع نفسه. ص953.

و " الخديوي عباس الثّاني"، وكذا لم ينسَ" السّلطان حسين " ما كتبهُ عنهُ " شوقي "في وداع " اللورد كرومر" فعمل على نفيه من البلاد وذلك بالتّنسيق مع الإنجليز. [1].

قال أحمد شوقي عنْ مصرَ في قطعة من الشِّعر المنثور، قال فيها:" الموطن موضعُ البلاد، ومجمعُ أوطار الفؤاد، ومضجعُ الآباء والأجداد، الدّنيا الصّغرى وعتبة الدّار الأخرى، الموروث والوارثُ، الزّائل عن حارث إلى حارث، مؤسِّس لبان وغارس لجان، وحيٌّ من فانٍ، دواليك حتّى يكسف العمران، وتسكن هذي الأرض عن الدوران. أوّلُ هواء حرّك المروحتين، وأوّل تراب مسّ الرّاحتين، وشعاع شمس اغترق العين، مجرى الصِّبا وملعبه وعرس الشّباب ومركبه"...[2].

وصف فيها أرضه مصر بِأنّها الأولى والآخرة، ومنها نبغ ونبت، وإليها يرجع ويموت، وتبقى تُوَرّثُ من جِيلٍ إلى جِيل حتّى يَرِث اللهُ الأرض ومن عليها.

وقد تناول في هذه القطعة الجميلة التي استقينا جزءاً منها حقوق الوطن على أبنائهِ، أو واجبات الوطنِيين نحو وطنِهم، ففصّلها أجمل تفصيلٍ دون أن يُفوتَه، ووصف كلّ حقّ بِوصفه المُلازم.

وقال في قطعةٍ أخرى من الشِّعر المنثُور خصَّ فِيها قناة السُّويس بالذِّكر، وذلك كان أثناء عُبُوره منها ذاهبا إلى منفاهُ الأندلس. قال فيها: «تكلّما يا ابني القناة، لقومكما فيها حياة، ذكرى إسماعيل ورياه، عليا مفاخر دنياه دولة الشّرق المرجأة، وسلطانه الواسع الجاه، طريق التِّجارة، والوسيلة والمنارة، ومشرع الحضارة.

---

[1] يُنظر، نضال عليان عويض العماوي، الغربة والحنين في شعر أحمد شوقي دراسة وصفية تحليلية، رسالة مستكملة لمتطلّبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب والنّقد، كلية الآداب الجامعة الإسلامية ـ غزّة ـ 2015م، ص16

[2] ـ أحمد شوقي، أسواق الذّهب، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة. القاهرة، مصر 2012. (د.ط)، ص16.

وقال فيها أيضاً: «...فقلت: يسري عودتك بوديعة التابوت، وبصاحِب الحُوت وبالحيّ الذي لا يموت، وأسري يا ابنة اليمّ زمامك الرّوح، وربّانك نوح، فكم عليك من منكوب ومجروح. وإنّ للنّفي لروعة، وإنّ للنّأي للوعة، وقد جرت أحكام القضاء بأن نعبُر هذا الماء، حيثُ الشّرُ مضطرم، واليأس مُحتدم، والعدو مُتقدّم، والخصم مُحتكم وحين الشّامت جذلانٌ مُبتسم، يهزأ لدمعٍ لم ينسجِم، نفانا حُكّامٌ عجم، أعوانُ العُدوان والظُّلم خلفناهم يفرحون بذهب اللُّجم، ويمرحون في أرسان يُسمُّونها الحكم. [1]

في بداية هذه القطعة قام أمير الشُّعراء بوصف قناة السويس وافتتاحها، ووصف ذلك الحدث. ثُمّ انتقل إلى وصف حاله مخاطبا السّفينة التي تحملهُ، وتحملُ جميع المنفيين والمُهجّرين من أرضِهِم. ويرى في هذا البلاء ألمًا ونُؤى وبُعدا عن حبيبتِهِ" مصر"، ويصف حال هذهِ الأرض بعد تمكُّن الأعداء منها، ووقُوعها تحت حُكم الأعاجم وأعوان الظُّلم، وتمتُّعِهم بأرضها وخيراتِها ومالها.

ومن قصائد أمير الشُّعراء المشهورة قصيدتُهُ المرثيّة الرّائعة، على إثر إعلان الهُدنة وهو في منفاهُ في الأندلس 1918م، إذْ كان يُمنّي نفسَهُ بالعودة لأرضِ الوطن ولقاء أهلِهِ، وفي مُقدّمتِهِم والدتهُ، إلاّ أنّهُ تلقّى خبر نعيِها كالصّاعقةِ وهو في قلبِ المنفى [2].

فقال فيها:

إِلى اللَهِ أَشكو مِن عَوادي النَوى سَهما أَصابَ سُوَيداءَ الفُؤادِ وَما أصمي

مِنَ الهاتِكاتِ القَلبَ أَوَّلَ وَهلَةٍ وَما دَخَلَت لَحماً وَلا لامَسَت عَظما

تَوارَدَ وَالنّاعي فَأَوجَستُ رَنَّةً كَلاماً عَلى سَمعي وَفي كَبِدي كَلما

---

[1] أحمد شوقي، أسواق الذّهب، ص30.

[2] يُنظر، أحمد شوقي، الأعمال الشّعريّة الكاملة، المجلد الثّاني. دار العودة للنشر والتّوزيع، بيروت، لبنان. (د.ت)، (د.ط). ص146.

فَما هَتَفا حَتّى نَزا الجَنبُ وَانزَوى فَيا وَيْحَ جَنبي! كَم يَسيلُ؟ وَكَم يَدمى؟

طَوى الشَرقَ نَحوَ الغَربِ وَالماءَ لِلثَرى إِلَيَّ وَلَم يَركَب بِساطاً وَلا يَمّا

وقال أيضاً:

زَجَرتُ تَصاريفَ الزَمانِ فَما يَقَع لِيَ اليَومَ مِنها كانَ بِالأَمسِ لي وَهما

وَقَدَّرتُ لِلنُعمانِ يَوماً وَضِدَّهُ فَما اِغتَرَّتِ البوسى وَلا غَرَّتِ النُعمى

شَرِبتُ الأَسى مَصروفَةً لَو تَعَرَّضَت بِأَنفاسِها بِالفَمِّ لَم يَستَفِق غَمّا

فَأَترِعْ وَنَاوِلْ يا زَمانُ فَإِنَّما نَديمُكَ سُقراطُ الَّذي اِبتَدَعَ السُمَا

قَتَلتُكَ حَتّى ما أُبالي: أَدَرتَ لي بِكَأسِكَ نَجماً أَم أَدَرتَ بِها رَجما؟![1]

في مجموعة الأبيات الأولى من قصيدته، يستهلها الشاعر بشكوى إلى الله من شدّةِ البُعدِ والشّوقِ لأرض الوطن، وزيادة جُرحِهِ عمقا، بِسبَبِ وفاة والدته، فهذا النبأ قد أدمَاهُ، وزاد في تمزُّقِهِ، وخاصّةً أنّهُ لا يستطيعُ العودةَ أو تودِيعِها.

ما يُلاحظُ على الشّاعِرِ أنّهُ قد خصَّ حرفَ " الميم" من الحُروف الأخرى ليكون روياً لقصيدتِهِ، ومن خاصيةِ هذا الحرف أنّهُ: صوت مجهور لا هُو بالشّدِيدِ ولا بالرّخوِ، إذن صِفتُهُ هي التّوسُّط، فهو يُنسبُ للأصواتِ المُتوسِّطةِ ويتكوّنُ هذا الصّوتُ بأن يمُرَّ الهواءُ بالخُنجُرةِ أوّلاً فيتَذبذبُ الوَترانِ الصّوتِيانِ، فإذا وصل في مجراه إلى الفمِ هبط أقصى الحنَكِ، فسدَّ مجراهُ في التّجويفِ الأنفيّ مُحدِثاً في مُروره نوعاً من الحفِيفِ لا يكادُ يُسمعُ. وفي أثناء تسرُّبِ الهواء من التّجويفِ الأنفيّ تنطبِقُ الشّفتان تمام الانطباقِ، ولقلّة ما يُسمع المِيم حفيفا اعتُبِرت في درجةٍ

[1] يُنظر، أحمد شوقي، الأعمال الشِّعريّة الكاملة، المجلد الثّاني. ص147.

وُسطى بين الشِّدّةِ والرّخاوَةِ، لأنَّ خاصّيةَ الأصواتِ الشّدِيدةِ هي الانفجار حِين النُّطقِ بِها، وخاصّيةُ الأصواتِ الرّخوةِ هي نسبةُ الحفِيف الذي يصلُ في بعض الأصوات الرّخوةِ إلى صفِيرٍ كما في السِّين والزّاي...[1].

إذن سبَبُ استخدامه للميم هو أنّهُ قد تأرجح بين حالتين، حالةُ الغضب الشّديد بسَببِ المنفى والبُعد، وحالةُ الحزن الشّديد الذي يُحيل إلى الضِّعف وخوران القوى بسَبَبِ وفاة والدته، فكان منهُ إلاّ أن يستخدم هذا الحرف ليتوسط حالتهُ ويُبيّنها، فكان تارة يُطلقه بالألف لهول ما أصابه، وأن حد تحمله قد بلغ السّما، وتارة نجده يُرفقه بالياء وكان ذلك في البيت الرّابع في المقطع الأوّل. حيثُ قال في نهاية البيت "**بِدمِي**"[2]، وهُو الجُرحُ الأليمُ الذي سبّبهُ هذا النّبأ فبيَّنَ الشّاعرُ شدّة انكِسارِهِ بإرفَاقِهِ بالياءِ.

في المقطع الثّاني من الأبيات السّابقة الذِّكر بيَّن الشّاعرُ حالتهُ كحالة النُّعمان، الذي كان يوماً له ويوما عليهِ. فأحمد شوقي في هذا المنفى كانت مُعظمُ الأيّام عليه، وعندما سمِع بِخبر الهُدنة أحسَّ بأنّها صارت لهُ، إلاّ أنّهُ سُرعان ما انقلبت بِسماع خبر وفاة أُمِّهِ، ممّا جعلهُ يدخُلُ في حالةٍ من اليأسِ والقُنُوط إزاء ما حصَل، وودَّ لو كان محلَّ سُقراط. الذي سُقيَ السُّمَّ لإنهاء مُعاناتِهِ. وكذلك من قصائده المشهورةِ القصيدة التي قالها الشّاعر بعد عودتِهِ من منفاه ببلاد الأندلس، وقد أشاد فيها بِذِكر تلكَ البلادِ شُكراً، وعِرفاناً بِجميلِها وكان عنوانُها: "بعد المنفى"[3] وقال فيها:

أنادي الرّسمَ لو ملك الجوابا وأجزيهِ بدمعيَ لو أثابا

وقَلَّ لحقَّه العبراتُ تجري وإن كانت سَوادَ القلب ذابا

---

[1] يُنظر، أنيس إبراهيم، الأصوات اللّغويّة. ص48.

[2] يُنظر، أحمد شوقي، الأعمال الشّعريّة الكاملة، المجلد الثاني 146.

[3] يُنظر، أحمد شوقي، الأعمال الشّعريّة الكاملة، المجلّد الأوّل. دار العودة للطّباعة والنّشر، بيروت لبنان.1988 (د.ط). ص64.

سبقنَ مُقبّلاتِ التُّرْبَ عنّي وأدَينَ التّحيةَ والخطابا

فنَثَرَى الدَّمعَ في الدِّمن البوالي كنظمي في كواعبها الشَّبابا

وقفتُ بها كما شاءَت وشاءُوا وقوفًا عَلَّمَ الصَّبرَ الذّهابا

لها حَقُّ، وللأحباب حقُّ رشفتُ وصالَهم فيها حبابا [1]

حذا " أحمد شوقي " حذو القُدامى، فقد كانت بدايتهُ بُكاءً على الأطلال في قولهِ:

أنادي الرّسم هو ما كان بالأرض من أثرِ الدّار. ويُقصد بها مكان إقامته السّابقةِ الأندلس، وحزنهُ على فراقِها رغم أنّهُ كان مَكان نفيهِ، ويراه قد أسدى إليهِ معروفاً كبيراً ولا يُمكنُ إبقاءهُ حتّى ولو كان هذا الجزاء بالدُّموع، كما أنّهُ يصفُ حالَهُ بعد نُزولِهِ في أرضِ الوطن والعودةِ إليها، وقد استخدم أحمد شوقي حرف "الباء "روياً لهذهِ القصيدة. وكما تمّ الذّكرُ لصفاتها من قبل فهي أكثرُ ملاءمةً لحالتهِ التي تنِمُّ عن السّعادة لرجوعِهِ إلى الوطن.

[1] يُنظر، أحمد شوقي، الأعمال الشّعريّة الكاملة، المجلّد الأوّل. ص64.

الفصلُ الثّاني:

أثرُ المنفى في شِعر الأمير.

المبحثُ الأوّل:

. حياةُ الأمير بالمنفى.

المبحثُ الثّاني:

الأمير الشّاعر بأرض المنفى

تمهيد:

بعدما شهِد العالَمُ العربيُّ موجة الاستِعمار في ق18 من طرفِ مجموع الدّول الأوروبية أضحى، هذا الأخير تحت رحمةِ الأجنبيّ ومقرّا لأطماعِهِ، فبعد تقسِيمِهِ صارت كُلُّ دولةٍ من الدُّولِ العربيّة تحتَ نوعٍ مُحدّدٍ من الاستعمار سواء كان انتِداباً فرنسيّاً، أو بريطانيًّا أو حماية. وكان أخطَرُها وأشدُّها وطأةً، وقُوّةً وشراسةً، المُسمّى بالاستعمار الفرنسي الاستيطاني، والذي يقضي بمسحِ هويّة الدّولة المُحتلّةِ، وإبدال شعبِها بِشعبٍ آخر، والذي خضعت لهُ الجزائر باعتبارِها جوهرة من جواهر القارّةِ الإفريقيّةِ في أنظار الدُّولِ المُستعمرَةِ.

ولم يكُن هذا المُخطّطُ الاستِعماريُّ ولِيدَ السّاعةِ، بل تعودُ خلفِيتُهُ إلى مسألةِ الدُّيُون التي اتَّخذتها حُكومة " شارل العاشر" ذرِيعةً لِغزوِ" الجزائِر"، حيثُ اعتمدتْ على مُماطلات القُنصل الفرنسِيّ بالجزائرِ "بيار دوفال" في مُعالجةِ قضيّة الدُّيونِ الجزائريّةِ على فرنسا، والتي ظلّت مُعلّقةً بِسبَبِ التَّهرُّبِ من التّسدِيدِ. وقد أُثِيرت في مُناسبةِ العيد من قِبَلِ الدّاي "حُسين باشا"، وتمَّ استِفزازُهُ من طرفِ" دوفال " فلم يتمالك أعصابَهُ وأشارَ إليهِ بالمروحةِ. [1]

اتّخذت فرنسا هذِهِ الحادِثةَ ذرِيعةً لِفرضِ حِصارِها على سواحِل الجزائر كونها إهانة لها ولِقُنصُلِها. وبهذِه الحادِثةِ المشؤومةِ تمَّ الإنزالُ من طرفِ العدوّ على أرض الجزائر والتّوغُّلِ فِيها، ومُمارسة كُلِّ ما هُو مُنافٍ للإنسانيّةِ

---

1. ينظر ناصر الدّين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسّسة جائزةُ عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري سنة 2000م، المملكة العربيّة السُّعوديّة. (د.ط). ص125.

من: تعذِيبٍ وتقتيل وتهجير على شعبِها. وكان ذلكَ من خلال الدُّخول عبر مِيناء سيدي فرج في ليلةِ 14جوان1830م، باعتِباره نُقطةَ ضعف في الدِّفاعات الجزائريّةِ، فتمَّ اختِيارُهُ كموقع لِبداية الإنزال. [1]

وتمّ توقيعُ مُعاهدة الاستسلام مع "الدّاي حُسين" يوم :05جويليّة 1830م، بعد تخاذُل في ردِّ القُوّات الفرنسيّة من طرف السُّلُطات العُثمانيّة. وغادر الدّاي المُستسلِمَ أرض الجزائرِ مع حاشيتِهِ، وممتلكاته التي أُحصِيَت بعشرة قناطر من الذّهبِ تتعدّى قيمتُها 100مليون فرنك من الذّهب، حتّى جُزِم بأنّ الدّاي هو من سهَّل مُهمَّةَ الاحتِلال. [2]

بعدَ هذِهِ الخِيانةِ التي تعَرّضَ لها الشّعبُ الجزائري من طرفِ حاكِمِهِم التُّركي الأصل، كان لِزاماً على الشّعب التّصدّي للقُوّاتِ الغازيَةِ، وكانَ ذلكَ في شكلِ مُقاوماتٍ شعبيّةٍ مُنظَّمةٍ شمِلت مُعظَمَ التُّراب الوطنِي في فتراتٍ زمنيّةٍ مُتفاوتَةٍ، كان أهمُّها: مُقاومةُ الحاج أحمد باي في الشّرقِ (1830/1848) والذي رفض التّعاوُن مع الأمير عبدُ القادر بِسبَبِ نسبِهِ العربي. ومُقاومةُ الأمير عبدُ القادر في الغرب الجزائري (1830 / 1847)، وجِهادُ القبائل (1846/ 1857)، وغيرها الكثير.

أمثال مقاومة: الشّيخ المُقراني، مُقاومةُ الزّعاطشة، مُقاومة الشّيخ بوعمامة. [3]

وما يهُمُّنا وما يخُصُّ صُلب موضوع بحثِنا هي مُقاومة الأمير التي تُعتبرُ الباب الذي نَلِجُ منهُ لهذِهِ الشّخصيّة الفذّةِ (حياتُهُ، شِعرُهُ، وكذلك منفاهُ). وقبلَ التّطرُّقِ لِكلّ هذا علينا بِدايَةً أنْ نتطرّقَ لحياة الأمير قبل أنْ ينخرِطَ في صُفوفِ المُقاومة أو بالأصحِّ قبل أنْ يَقُود صُفُوفَ مُقاومَتِهِ العظِيمَةِ.

---

[1] يُنظر، منور العربي، تاريخ المقاومةِ الجزائريّة في ق19.دار المعرفة للطِّباعةِ والنّشر باب الواد، الجزائر. (د.ت)، (د.ط)، ص 20.

[2] يُنظر، المرجِع نفسُهُ ص22.

[3] يُنظر، المرجِع نفسُهُ. ص145، ص 165.

نشأتُهُ:

الأمير عبدُ القادر هو ابنُ الأمير محي الدّين الحسيني، يتّصِلُ نسَبُهُ بالإمام الحسين بن علي بن أبي طالب وُلِد في يوم 23رجب عام 1222هـ، الموافق لِ: ماي1807 م بقرية القيطنة الواقعة على وادِي الحمام غربي مدينة معسكر من إيالةِ وهران، وبِها نشأ وترَعرَعَ. [1].

بالنِّسبةِ لِحياةِ الأمير فقد «عاشَ تجرُبة حياة مركّبة تعدّدت أبعادُها فاختَصَبَتْ، واكتسَبتْ ثراءً جعلها على صِلةٍ بالحياةِ مُستمرّةً ... عاشَ عهدَ تفعِيل السّيف، ومُباشرةُ النِّزال زُهاءَ العِقديْنِ، ثُمَّ طوى الصفحة لِيَنبَرِيَ لِحياةِ الوجاهةِ وبِناءِ الصِّيتِ... وبينَهُما عانى من الحبسِ، والنّفيِ والإقصاءِ عنِ الوطن، ثُمّ انعطَفت بِهِ الوقائع ودشَّنَ دَرْبَ الذُّيُوعِ الدُّنْيَوي، وسارَ في مَسالِكِ الرُّوح.» [2]

وبِدايتُها كانت مع والدِهِ الأمير محي الدّين، والذي يُعدُّ من حُماةِ الشّريعةِ ومن كِبارِ أوليائها، وشيخ الطّريقةِ القادريّةِ. وقد اتّخذَ والِدُهُ زاويةً لطلَبِ العِلمِ والقرآنِ على طرِيقةِ أسلافِهِ، مِمّا جعلَ لهُ مكانةً ساميةً لِعِلمِهِ، وصلاحِهِ وكرَمِهِ، وشرَفُ نسَبِهِ وحسَبِهِ. وقد تزوّج والِدُهُ من أربَعِ نِسوَةٍ، رُزِقَ منهُنَّ سِتَّةَ أولادٍ، وكان الأميرُ من زوجتِهِ الثّالثة وهيَ السّيّدةُ ابنةُ السّيّد: محمد بنُ دوحة الحسينيّة، وبهذا قد نشأ الأمير نشأة دِينيّةً في بيتٍ

---

[1] . ينظر، يحيى بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدّار العربيّة للكتاب، تونس1983، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع بالجزائر، (ط 3)، مُنقّحة ومزيد فيها، ص41

[2]. سُليمان عشراتي، الأمير عبد القادر المفكر مساجلات في قضايا اللّغة والمعرفة وفقه الخطاب القُرآني، دار الغرب للنّشر والتّوزيع الجزائر 2004 . (ط4)، ص49.

ينتمِي للطّرِيقةِ القادريّةِ. فوالِدُهُ قد كان عالِماً مُتصوِّفًا، وأولى ابنَهُ رِعايَةً خاصّةً لِدراسةِ عُلوم اللُّغةِ، والفِقهِ والتفسير بعد أنْ ألحَقَهُ بِمدرستِهِ في القيطنة حين بلغ الرّابعة من عُمرِهِ، وبدأتْ مَلَكاتُهُ العقليةِ تظهَرُ لِتدُلَّ على نُبُوغٍ مُبكّرٍ حيثُ أتقَنَ الكِتابَة، والقِراءَةَ وهُوَ في عُمرِ الخامِسَة، ووالِدُهُ بِدَورِهِ قد بذلَ جُهدَهُ في تثقِيفِهِ لِمَا الْتَمَسَهُ فِيهِ من أماراتَ التّفَوُّقِ والتّميُّزِ، فتمَكَّنَ الفَتَى من اكتِسابِ جانِبٍ عظِيمٍ من العِلمِ، استطاعَ حِفظ القُرآنِ في سِنٍّ مُبكّرةٍ. [1]

وفي الرابعة عشر من عُمرِهِ، أصبح حافظًا باستطاعتِهِ ترتيلُ القرآن الكريم عن ظهر قلب في حلقات العلم، وبين أساتِذتِه، وهذا بعد تلقّيه العُلوم العقليّة والشّرعيّة على كثير من أساتِذة العلم وفُقهاء الشّريعةِ، وخاصّة عنْ والِدِهِ الفقِيه الصُّوفي الكبير الذي أثرى حياتهُ، وأسّس فِكرهُ تأسيسًا أصِيلاً ولقّنه مناهج اقتِناصِ الفِكر والحِكمة، وربّاهُ بِمنهجٍ صوفيٍّ ووجداني مكّنَهُ من بعد اكتِساب أساليب البحث والنّظر، واستِلهام الحقائق والمعارف. [2]

أمّا في عام (1236هـ. 1821م) انتقل مع والِدِهِ إلى وهران بِسبَبِ وضعه تحت الإقامة الجبريّة من قبل الحُكومة التُّركيّة، لِما يمتَلِكُهُ من مكانةٍ عظيمةٍ وسط الأهالي فهو بالنِّسبةِ إليهِم الزّعيم الشّعبي، والمُخلِّصُ من حُكم الأتراكِ الجائر، وعندما رُفِعت عنْهُ هذهِ الإقامة، وأُذِنَ لَهُ بأداءِ فريضة الحجِّ في عام (1241هـ. 1825م)

[1] يُنظر، محمد مراد بركات، الأمير عبد القادر الجزائري المُجاهد الصُّوفي، كُليّة التّربية، جامعة عينُ الشّمس، دار النّشر الإلكتروني. (د.ب)، (د.ت)، (د.ط)، ص09

[2] يُنظر، المرجع نفسهُ. ص10.

اصطحبه والِدُهُ معه دونًا عن إخوتِهِ الذين يكبُرونَهُ سِنًّا نظرًا لِمواهِبِهِ المُتعدِّدةِ، ونباهتِهِ وفِطنتِهِ وعند انتِشار خبر رِحلتِهِ انظمَّ إلى موكِبِ والِدِهِ مجموعة من الفُرسانِ لِحِراستِهِ في سَفرِهِ الطّوِيل، وهذا ما أثارَ حفِيظة الوالي وقلقِهِ، مِمَّا جَعلَهُ يستَدعِيهما للنّظر في الأمرِ، وما إنْ دخَلَ عَلَيْه صُحبةَ ابنِهِ حتّى أُمِرَ بالقبضِ عليهِما وإيداعِهِما السِّجن.

قام الأمير الفتى بالتَّصدِّي لِجُنودِ الوالِي التُّركِيّ في جُرأةٍ وشجاعةٍ وقال لهُ:" نحنُ مُسافِرون للحجِّ، وما هذا الحرسُ إلاّ القدر الذي يتناسب مع مخاطر الطريق، فإذا شِئت ركِبنا السّفِينة أمامكَ للسّفر، وإلاّ فلسْتُ المسؤول عن نتائج اعتِقالِنا" وبعد هذا الكلام المُفحِمِ لم يكُن الوالي منهُ إلاّ أنْ يُطلِقَ سراحَهُما. كانتْ رِحلةُ الحجِّ بِمثابةِ رِحلةٍ عِلميّةٍ وتدرِيبيّةٍ تَعرَّفَ فِيها الأميرُ الفتى على مُعظمِ الدُّولِ العربيّةِ ابتِداءَ من "تونس " "فمصر"، ثُمّ" مكّةَ والحِجازِ"، وفي الرُّجوعِ تمَّ التّعرِيجُ على بِلادِ" الشّامِ" والتي دامتْ مُدّةُ الإقامةِ فِيها عِدّةَ شُهُورٍ، استغلّها في الدِّراسةِ مع كِبار عُلماءِ "الجامع الأموي". (1)

وكذا مرّ بالتُّرابيْنِ: "العراق ودِمشق"، وحجَّ مرّةً ثانيّةً ثُمّ عاد إلى الوطن عن طريق "برْقَةَ وطرابلس فتونس"، وفِيها قابل الأمير كِبار الشّخصياتِ السِّياسيّةِ، وتعرّفَ على أنظِمةِ الحُكمِ الإداريّةِ، والتي استفَادَ منها مُستقبَلاً في بناءِ دولتِهِ. (2)

---

[1] - يُنظر، يحيى بوعزيز، الأمير رائد الكِفاح الجزائري.ص41، ص42.

[2] المرجع نفسه، ص42، ص43.

الأمير عبدُالقادِرِ والسّيّدةُ الوالِدَة:

وإضافة إلى والِدِهِ، كان للسَيّدة الوالِدةِ أثَرٌ كبيرٌ في صقلِ شخصِيتِهِ وتربيتِهِ، تِلكَ السّيّدة ذاتَ المَنبَتِ الطّيّب والأصل الشّريفِ قدْ لازمَها في حِلّهِ وترحالِهِ، وسِلمِهِ وحرْبِهِ، وأرفقَها معَهُ إلى الأسْرِ، وأعادَها مَعهُ إلى "إستانبول" و"بروسه ودمشق"، وامتنعَ عنِ الحجّ خشية أنْ يَفقِدَها في تغيُّبِهِ عنْها، وعند تَوَفّيها حَزِنَ عليْها حُزنًا شدِيدًا وتوقَّفَ في الطّرِيقِ مَرّاتٍ مُتعَدّدَةٍ من "مَقبَرَةِ الدَّحْداحِ"، حيْثُ دُفِنَت إلى منزِلِهِ "بالعَمارَةِ في دِمشق" عجزًا وذُهُولاً والمسافةُ لا تزِيدُ على كيلومترٍ واحِدٍ. وكانَ شدِيدَ الاحتِرام لها يأخُذُ بِرَأيِها ويَسْتشِيرُها، وربّما كانتْ والِدَتُهُ ذاتَ شخصِيّةٍ قوِيَّةٍ وطاغِيَّةٍ. حيثُ أنَّ "نابليون الثّالث" قبَّلَ يَدَها "بِأمبواز" وسألَها الدُّعاءَ، وكذا في احتِفالات "باريس "أجلَسَ الأميرَ بِجانِبِهِ وسَألَهُ عنها خاصَّةً، وكانَ الكثِيرُ منَ الكُبَراءِ والعُظماءِ الذِين يُراسِلون الأمير يُقدّمُون لِوالِدَتِهِ الاحتِرامَ اللاّئقَ معَ التَّحيّاتِ الخاصّةِ. (1)

جِهادُ الأمير ضدّ القُوّاتِ الغازِيّةِ الاستِعماريّةِ:

تعرّضتِ الجزائرُ للغزوِ الفرنسِيّ لأسبَاب معروفةٍ، وبعد تلك الخِيانةِ التي تعرَّض لها الشّعبُ الجزائريُّ، تقدّمَ الشّعبُ لِردعِ هذا العدُوّ وبِقُوَّةِ السّلاحِ.

كانَ الأميرُ مُقاتِلاً إلى جانِبِ والِدِهِ الذي بُويع من طرَفِ أهلِ القيطنةِ إلى غاية سنة 1832 م، التي تمّتْ فِيها نقلُ البيْعة إلى الأمير، وتنصيبه مكانَ والِدِهِ بِسَبَبِ كِبَرِ سِنّهِ. (2)

---

[1] يُنظر، الأمير عبد القادر الجزائري، الدّيوان، شرح وتحقيق ممدوح حقي، دار اليقظة العربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر، (د، ب) (د، ت)، (د.ط)، ص07.

[2] يُنظر، نزار أباظة، الأمير عبد القادر العالِمُ المُجاهد، دار الفكر بدِمشق. سوريا (1414هـ. 1994م)، (ط1)، ص 10.

وبعْدَ مُبايعتِهِ صارَ النّاسُ يتشَوَّقُون إلى تِلكَ السّاعةِ التي يدُقُّ فِيها نذِيرُ التّغيِير يَدعُوهم إلى الجِهادِ، وهذا ما حدَثَ فهَرَعُوا إليهِ من كُلِّ حدْبٍ وصَوْبٍ، وبِهذا استطاعَ الأميرُ تشكِيلَ جيْشٍ فتِيٍّ قامَ بِتنظِيمِهِ وتدرِيبِهِ، واستطاعَ توحيدَ صُفُوفِ الشّعبِ ومُحاربَةِ الفرنسِيينَ، وكذا بَرَعَ في دور القائد العسكريّ، ودوْرِ القاضي في فَكِّ المُنازعاتِ بين القبائلِ المُتفرِّقَةِ. [1]

استطاع تحقِيقَ النّصرِ في أغلَبِ الوقائع ضِدّ القُوّاتِ الغازِيَةِ خُصوصًا في مدِينَتَيْ: (وهرانَ ومُستغانم)، ونخُصُّ واقِعة" مُستغانم "التي تجلَّتْ فِيها عبقرِيّتُهُ الحربية، وبِسَبَبِ انتِشار شُهرتِهِ وذُيوعِ صِيتِهِ في جمِيعِ أنحاءِ القُطرِ الجزائريّ أتَتْهُ البيْعَةُ والطّاعةُ من سَائِرِ الجِهاتِ، والتَحقَ النّاسُ بالعاصمة "مُعسكر" لِيَنضَمُّوا إلى صُفوفِ جيشِهِ للدِّفاعِ عنِ الوطن خلف قائدٍ جمع جمِيعَ صِفاتِ القِيادَةِ الحربيّةِ. [2]

كانتْ هذِهِ الانتِصارات بِمثابة ضرباتٍ قاضِيَة افقدت الجيشَ الفرنسِيَّ قُوَّتَهُ، مِمَّا اضطرَّ الجِنرال "دي ميشيل" حاكمُ وهرانَ إلى إبرامِ اتِّفاقيةٍ مع الأمير في 17 شوّال عام 1249هـ. 1834م، عُرِفت بِمُعاهدَةِ "دي ميشيل". استغلَّ الأميرُ هذِهِ الهُدنَةَ لِبناء دولَةٍ قويّةٍ على مثال الدّولة الحديثةِ. فعلى رُغْم انشغالِهِ بالجِهاد على مُختلفِ الجَبَهات استطاعَ أنْ يَهتَمَ بِأحوال بلاده، وعلى الجانِبِ العسكريّ شيَّدَ الحُصون، وأقامَ القِلاعَ وصنعَ السِّلاحَ وأنتجَ الذّخِيرَةَ وأقامَ جيشًا قويًّا، ونظّمَ صُفوفَ الشّعبِ ووحَّدَ الأُمَّةَ.

---

[1] يُنظر، يحيى بوعزيز، الأمير رائد الكِفاح الجزائري. ص 51.

[2] يُنظرُ، المرجع نفسه، ص 51، ص52.

وإداريًا استطاع إنشاء ثمانيَ مُقاطعاتٍ يرأَسُ كُلٌّ مِنْها خلِيفةً يُعيِّنُهُ هُوَ، وقسّمَ المُقاطعةَ إلى دوائرٍ. والدّائرةُ تضُمُّ مجموعةً من القبائِلِ، وكُلُّ قبِيلةٍ تتفرّعُ إلى عشائر، ولِكُلِّ تسلسُلٍ حاكِمٌ خاصٌّ، واهتمَّ بالقضاءِ والعَدلِ والتّعلِيمِ واتَّسَعتْ رُقعتُهُ وتَأصَّلَتْ ركائزُ دولتِهِ. [1].

وكعادةِ فرنسا ثمَّ نَقضُ الهُدنَةِ المَبرومَةِ مع الأميرِ مِن قِبَلِ "ترين زيل" حاكِمُ وهران، وبِهذا عاد الأميرُ لِساحاتِ المَعارِكِ، وما هيَ إلاّ جولاتٌ قلِيلة حتّى أذعَنَ الفرَنْسِيُون واضطرَّ الجِنرال "بِيجو"، الحاكِمُ الجديد" لوهران" إلى إبرامِ مُعاهدةٍ أُخرى، سُمِّيَتْ بِمُعاهدَة "التّافنة" في :14صفر1253هـ/1837م، وخِلال هذه المُعاهدة استطاعَ استِكمالَ ما بَدَأهُ في شتّى المَيادِينِ، وكان أهمُّها جمع قبائل الجزائر وجعلِهِم شعْبًا واحِدًا بعدَما نَشَرَتْ فِيهِم فَرنسا التَّفرِقةُ والشّتاتَ، إضافة إلى أنَّهُ أولى الجانِبَ العِلمِيَّ عِنايَةً خاصَّةً، وطلبَةُ العِلمِ بِدَورِهِم تَمَّ إعفَاؤُهُم مِنَ الضّرائِبِ ومُكافأةُ المُجتَهِدِ مُكافآتٍ سَخِيَّةٍ، وجمع المَخطوطاتِ والكُتُبِ القيّمَةِ، وبِهذا استطاعَ أنْ يصنَعَ مَجدَ دولَةٍ كانَت امتِدادًا وتأصِيلاً لِدولةِ الجزائرِ الحدِيثةِ. [2]

---

[1] يُنظر، محمد مراد بركات، الأمير عبد القادر الجزائري المُجاهد الصُّوفي. ص15،16، 17.

[2] يُنظر، المرجع نفسه.ص18، 19 20.

كانَتْ هذِهِ المَعارِكُ بيْنَ نصرٍ وهزِيمةٍ للأمير، وقدْ زوَّدت فرنسا" بيجو" بإمداداتٍ عسكريَّةٍ، وجُنود مُدرّبين في كُلّ فترة، وكان من عبقريّة الأمير أنَّهُ ابتَدَعَ لِنفسِهِ عاصِمةً مُتنقِّلة بِكُلِّ ما تحمِلُهُ الكلِمةُ من معنى لِتسْهِيلِ القِتالِ وتجنِيبِ القُوات الفرنسيّةِ من التّمَكُنِ من دولَتِهِ، وكان لا يُهمِلُ أقسامَ ومُقاطعات دولَتِهِ الأخرى، التي مازالت تحْت سُلطتِهِ فيَخرُجُ في رحَلاتٍ ميْدانيَّةٍ لِمُعايَنَتِها. وكانَ على تواصُل دائم مع خُلَفائِهِ في المناطِقِ مِمَّا يَجْعَلُهُ على اطِّلاعٍ دائمٍ على ما يحدُثُ فِيها. (1)

ونذكُرُ إجابتَهُ على رِسالة خلِيفَتِهِ الذي كان على مناطِقَ "جرجرة"، والذي أوصاهُ فِيها بالصّبر والشّجاعةِ، وجمع قُوَّتِهِ ومُشاورَةِ جنودِهِ، والاستِماعِ إلى مَطالِبِهم، وآرائِهِم وأرفقها بقصيدة لشحذِ هِمَمِهم، وبيَّنَ فِيها مَحبَّتَهُ لِهؤلاءِ المُجاهِدِينَ. (2)

«فالأمير الذي كان يُديرُ الأحداثَ العسكريّةِ، ويُحيِي بِشِعرِهِ المُناسباتِ السّعيدةِ والحزينةِ، ويقومُ على التّرتيبِ لها بِنفْسِهِ، ويُنشِّطُها بِعطاءات قرِيحتِهِ، كان يتكفّلُ في ذاتِ الوقتِ بتغطيَة السّاحَةِ التّنظِيمية، والتّجنِيديّةِ داخِلِيًّا وبتغطية المجال السِّياسي والدِبلوماسي خارجيًّا من خلال مُخاطباتِهِ وتوصياتِهِ». (3)

أي أنَّهُ كان أميرًا في جميع النّواحي عسكريّةً كانتْ أو دبلوماسيّة وأدبيّة.

---

[1] يُنظر، علي محمد الصلابي، كِفاحُ الشّعب الجزائري ضِدَّ الاحتِلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر، تاريخ الجزائر إلى ما قبل ع 1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت)، (د.ط) ص477، ص485.

[2] يُنظر، المرجع نفسه، ص485.

[3] سُليمان عشراتي، الأمير عبد القادر المفكر مساجلات في قضايا المعرِفة والخطاب القرآني. ص60.

ويقولُ في بعضِ أبيات قصيدتِهِ: "الباذِلون أنفُسَهُم":

يا أيُّها الرِّيحُ الجنوبُ! تحمَّلِي مِنِّي تحيَّةَ مُغرَمٍ وتجمَّلِي

وأقر السّلامَ أُهيل ودِّي وأنشُري من طِيبِ منْ حمَلَتْ رِيحَ قُرُنفُلِ

أدِّي الأمانةَ يا جنُوبُ! وغايتِي في جمعِ شملي يا نسيمَ الشّمالِ

واهدي إليَّ منْ بالرِّياضِ حدِيثَهُم أذْكى وأحلى مِنْ عبِير قُرُنفُلِ

حاولتْ نفسِي الصَّبْرَ عنهُم قِيلَ لِي: مَهْ ! ذا محالٌ وَبِكَ عنْهُ تَحَوُّلُ!

كيْفَ التّصبُّرُ عنهُم؟! وهُم هُم أربابُ عهْدِي بالعُقُودِ الكُمَلِ!

أ يحُلُّ ريب الدّهْرِما عقَدُوا؟! وكمْ حُلَّتْ عُقودِي بالمُنى المُتخيَّلِ!

تفْدِيهِم نفْسِي وتفْدِي أرضَهُم أزكى المنازِلِ يا لَها مِن منْزِلِ!

أفْدِي أُناسًا ليْسَ يَدعي غيرهُم حاشا العصابةَ والطِّرازَ الأوَّلِ

يكفِيهِمْ شرَفًا وفخْرًا باقِيًا حَمْلَ اللِّواء الهاشِمِيِّ الأطوَلِ

قدْ خصَّهُم واختَصَّهُم واختارَهُم ربُّ الأنامِ لِذا بِغيْرِ تعمل

إنْ غيَّرَهُم بالمال شُحٌّ وما سَخا جادوا بِبَذْلُ النّفْسَ دونَ تَعلُّلِ [1]

في هذه الأبيات المُقتطفةِ من قصيدة" الباذِلون أنفُسَهُم" يُحمّلُ الأمِيرُ سلامَهُ، وتحِيّاتهُ لِجُنودِهِ المُجاهِدِينَ في الجِبال مع رِياحِ الجنوبِ، ويُمنّيهِم باللّقاءِ وجمعِ الشّملِ، ويُذكّرُهُم بِدورِهِم الجليل الذي يقومون بِهِ، فهُم يبْذُلون أنفُسَهُم في سبِيلِ الدّفاعِ عنِ الوطنِ، ويُضحونَ بأرواحِهِم لِحمايتِهِ.

[1] . الأمير عبد القادر الجزائري، الدّيوان، شرح وتحقِيق، ممدوح حقّي. ص:92،93،94.

هاجم "بيجو" العاصمة المُتنقِّلة، إلاّ أنَّ الأمير أعاد بِناءها في ظرفٍ قياسيٍّ، وواصل الأميرُ حملاتِهِ العسكريّةِ مُنطلِقًا من مدِينةِ أغادِير التي لجأ إليها. غير أنَّ القُوّات الفرنسيّة قامتْ بقصفها. إلاّ أنَّ الأمير واصل جِهادَهُ في البادية مع قبائلِ المغرِبِ، ولكن السُّلطان "عبد الرحمن" بدأ بِتحريضِ القبائل على التّمرُّدِ، وعلى إثْرِ هذِهِ الحادِثةِ أرسَل الأميرُ ومجموعة القبائل التي معَهُ وفْدًا إلى السُّلطانِ لإفهَامِهِ نَوايَا الأميرِ، التي كانت تخلِيصُ البِلاد من الأعداء وليس الطّمعُ في حُكمِهِ. إلاّ أنَّ رَسُولَ الوفْدِ قُتِلَ مِن طرَفِ السُّلطان. قلبَت هذِهِ الحادِثَةُ أهْلَ المغرِبِ على حاكِمِهِم وأرادُوا مُبايَعَةَ الأمير حاكِمًا عليهِم لكنَّهُ رفضَ. وعلى الرّغمِ مِن خِيانةِ سُلطان المغرب، ووسائل بيجو البربريَّةِ في الحربِ إلاّ أنَّ الأمير استمرَّ في القِتالِ ضِدَّهُ، وكانَت مُعظمُ مَعارِكِهِ تُتَوَّجُ بالنَّصرِ. [1]

تَعاونَ سُلطانَ المغرِبِ مع فرنسا ضِدّ الأمير وبالغ هذا الأخير في تضْيِيقِ الخِناق عليه، والحرب ضِدَّهُ فسارَ مع منْ بَقِيَ معَهُ مِنَ المُجاهِدِينَ مُتَّجِهًا نحوَ الصّحراءِ، وأمرَ بِنقْلِ الزمالة إلى مناطق عجرود، وسارَ غازِيًا إلى الجِهاتِ الشّرقيّةِ غيْرَ مُهتَمٍّ" بِبيجو" ولا الجنرال "مور يسير". وفي المُقابِلِ كان سُلطانُ المغرِبِ في مُراسلَةِ القبائلِ التي بايعَتِ الأمير، ويستخدم عُلماء بلَدِهِ في اتّهامِهِ بِأنّهُ زائغٌ عنِ الهُدى. وفِعلاً هذِهِ الرّسائلُ قد فعَلَت فِعلَها في نُفوسِ هؤلاء الزُّعماءِ وغيَّرَت مسارهُم. [2]

---

[1] . يُنظر، علي محمد الصلابي، كفاح الشّعب الجزائري ضدّ الاحتِلال الفرنسيّ وسيرة الأمير عبد القادر، تاريخ الجزائر إلى ما قبل ح ع 1، ص495، 496، 497.

[2] . يُنظرُ المرجِعُ نفسُهُ. ص511.

وفي سنة 1847و1848 بات الأمير يُقاتِلُ على عِدّةِ جبهاتٍ، بلْ وكان يرى بِأُمِّ عيْنَيْهِ فُرسانَهُ الأبطال يتساقطون بِرَصاصِ إخوانِهِم العرَب المُسلِمين، وشاهد أشهر قائد لديْهِ " محمد بن يحيى" يسقُطُ صريعًا في أحَدِ المَعارِكِ فقال:

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أشَدُّ مَضاضَةً على النّفس مِنْ وُقْعِ الحُسَام المُهنّدِ [1]

في هذا الوضعِ الذي آلَ إليْهِ الأميرُ مِن تضْيِيقٍ ومَعارِكٍ على شتّى الجبَهاتِ واقتِتالِ المُسلِمينَ فِيما بيْنَهُم بِسَبَبِ حرْبِ السُّلطانِ علَيْهِ. خرجَ بِرَأيٍ هُو وقادَةُ جيْشِهِ لِحقنِ الدِّماءِ، وتجنُّبِ اشتِعالِ فَتِيلَ الفِتْنَةِ إذا بَقِيَ الوضعُ على هذا الحالِ، وكان الرَّأيُ والقرارُ هو: " طلبُ الاستِئمان الزّمنيُّ" والهِجرةِ راجِعًا للإسلام ،واقتِداءً بِهجرةِ الرّسولِ ﷺ من "مكّة"، وبِهذا الرّأيِ فاوضَ الأميرُ فرَنْسا مُقدِّمًا شُروطَهُ ،والمُتمثِّلة في عدَمِ التّعرُّضِ للسُّكانِ، والمُجاهِدين مِنهُم بالشّرِّ، واعطائِهِم الأمَانَ في أموالِهِم وأنفُسِهِم، وعدمُ اعتِراضِ، أوْ منْعِ مَنْ يُرِيدُ السّفَر معَهُ مِنَ العسكرِيين والأنصار والأهلِ. وكان ثمَّةَ شرْطٌ واحِدٌ لِنفْسِهِ وهُو: " الاستِئمانُ الزّمنِي" ريثَما يصِلُ إلى البلدِ الذي حدَّدَهُ في الاتِّفاقِ، وهو "عكّا أوِ الاسكندريّةِ"، إضافة إلى العودة إلى الجزائر والجهاد بعد ثلاثِ سنواتٍ، وبعد أيّامٍ مِنَ المُفاوضاتِ تمَّ التّوقِيعُ على جمِيعِ طلباتِ الأمير وقُبولِها، وبِهذا رَكِبَ الأمِيرُ البارِجةَ يوم: 24 ديسمبر 1847م والتي اتَّجهت بِهِ إلى مِيناءِ "طولون". [2]

---

[1] . يُنظر، علي محمد الصلابي، كفاح الشّعب الجزائري ضدّ الاحتِلال الفرنسيّ وسيرة الأمير عبد القادر، تاريخ الجزائر إلى ما قبل ح ع 1، ص 511.

[2] . يُنظرُ المرجِعُ نفسُهُ. ص 516، 517.

المبحث الأوّل: حياةُ الأمير بالمنْفى:

1. أسرُ الأمير بفرنسا ونَقضِها لِلْوَعْدِ:

في الرّابع والعشرين من ديسمبر1848رسَت البارجة التي تَحْملُ الأمير في ميناء "طولون" في حالة انتِظارٍ لِبعضِ الوقتِ حتّى تصل التّوجيهات، ولكن قبل أنْ تصِل هذهِ التّعلِيمات دخل على الأمير الكولونيل "دوماس" وأدّى لَهُ التّحيّةَ بِكُلِّ احترِامٍ وتقدِيرٍ. ثُمّ أخبرَهُ أنَّ المُفاوضات لمْ تنْتَهِ بعد، وأنّ عليهِ الانتِظار بعض الوقتِ، ولكن الأمير بِفضلِ فَراسَتِهِ شعر بِنيَّةِ غدر، وتأكدت عِندَما أبْحرت البارِجةُ نحو فرنسا بِحُجَّةِ أنّ شرْطَ الهِجرةِ قد لقِيَ مُعارضَةً شدِيدةً مِن مَصادِرَ عُلْيَا بِفرَنسا. (1)

نقضتْ فرنسا عهدَها، ومنعتْ الأمير مِنْ مُواصلةِ رِحلتِهِ، وقصْدَ المكانِ الذي كان قد اتُّفِقَ عليْهِ ضِمْن المُفاوضاتِ، وتمَّ نقلُ الأمير وحاشِيَتِهِ إلى إقامةِ "لازاريت"، ومِنها إلى حِصن "لا مالغ" في العاشر من جانفييه، ثُمّ التحقَ بِهِ الذين أرسِلُوا إلى حِصن "مالبوسكي" في الثّامن عشر من جانفييه، وبعد أقلّ من شهر تداول مجلِسُ النُّواب الفرنسي في شأنِ "الأمير" ومَنْ معَهُ. ومعَ قُدومِ مارس توافَدَتِ الشّخصِيات الفرنسيّة لِزِيارةِ" الأمير" ومنْها مُفتِّش الحُكومة "إميل أوليفيه"، والجنرال "شانغا رنييه"، ومع حُلول شهر أفريل اكتمل شملُ المُعتقلِين مع وُصولِ إخوة الأمير وأُسَرِهِم إلى "طولون" على متْنِ الباخرة "لالباتروس"، وعندها نُقِلَ الجمِيعُ إلى مدينة "بو" مع نهاية شهر أفريل لِيُراسِل الأمير "لاموريسيار" يُذكِّرُهُ بِوُعودِهِ والذي تولّى وِزارة الحربيّة. ومن هُناك تمَّ نقلُهُ إلى "أمبواز" تنفِيذًا للأوامِرِ الصّادِرَة باعتِقالِهِ. (2)

---

[1] . يُنظر، علي محمد الصلابي، كفاح الشّعب الجزائري ضدّ الاحتِلال الفرنسيّ وسيرة الأمير عبد القادر، تاريخ الجزائر إلى ما قبل ح ع 1، ص519.

[2] . يُنظر، ناصر الدّين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري. ص172.

تحوَّلَ عجزُ الأمير والمُرافِقِين لَهُ بِفرنسا إلى مسألة وطنيّة، وقضيّةٌ دُوليّة تُثِيرُ تساؤل الرّأي العام الفرنسي، وتبعثُ على القلَقِ في الأوساط السِّياسية الأوروبية فصارت قضيتُهُ عُنوانًا للصُّحُفِ، وتَدخَّلَ لِصالحِهِ العدِيدُ مِن الشّخصيات الفرنسيّة أمثال القائد "لاموريسيار"، و" الأسقُف دوبيش"، و " الدوق دومال"، وكذا" اللّورد لند ندري" الذي كاتب الرّئيس الفرنسي لويس نابليون في شأنه، وألحّ عليْهِ لإطلاقِ سَراحِهِ، ولم يَطُلِ الأمرُ حتّى عقد هذا الأخير المُنتخَب حَدِيثًا مجْلِسًا للنّظر في أمْرِ الأمير، ثُمّ قامَ بِزيارتِهِ شخصِيًّا "بِأمبواز" لِيُبْلِغَهُ قرارُهُ بإطلاق سراحهِ وكان ذلك في السّادس عشرمن أكتوبر1852 فتحوّل الأميرُ بعد عشرة أيّامٍ مِن هذا اللِّقاء إلى باريس، لِيرُدّ زِيارَتهُ بِقصرِ "سان كلور" في الثّلاثين من أكتوبر1852م، وبعد أنْ تحدَّدَ موْعِدُ سفرِهِ قابلَهُ مرّةً أخرى في:

2ديسمبر1852، وكان موعدُ السّفر في: 14ديسمبر 1852 بعد تَعهُّدِه بعدم العودةِ للجزائر نِهائيًّا. [1]

مِمّا يُذكرُ للأمير أنّهُ قد عَرَضَت عليْهِ فرنسا بعْد إخلافِها بالوعْدِ أنْ يتّخِذَ مِنها الوطن الأمُّ، وكان ذلك بواسطة الجنِرال "دوماس" مُقابِلَ منْحِهِ أراضي وأملاكاً وأموالاً، ولكنّهُ رفضَ وقال: «إنَّنِي لا أقبَلُ هذا ولَو فُرِشت لي سُهُولُ فرنسا ومَسالِكُها بالدِّباجِ»، وأعظمُ من هذا أنّها عرَضت عليْهِ سُكنى بباريس أُسوةً بالخِديوي، فقال: «إنّ إبراهيم باشا يرى باريس وغيرِها من أمصار فرنسا مُتنَزَّهًا لَهُ...وأمّا أنا فلا أرى فرنسا إلاّ سِجنًا لِي ولِمَنْ مَعِي». وفي سِجن أمبواز تعرَّض الأميرُ لِسُوءِ المُعامَلة، والتّضييقات جرّاءَ غطرسةِ المسؤولِين، ولم ينتَهِ هذا العسفُ وذاكَ التّضيِيق، إلاّ بعد تغيِير الحُكومة وتولّي "لويس نابليون 'لحُكمَ. وقدْ أُقِيمَت على شرَفِ الأمير المآدِبُ الفاخِرةُ من طرف الوزراء ورِجالِ الدّولةِ، ووُجهاء الشّعب وبِخاصّةٍ مأدُبَةُ "نابليون "، والتي تنافس فِيها الأميرُ مع العُلماءِ والعسكرِيين والسِّياسِيين، مِمّا جعل الجمِيع يُعجَبُون بِخِبرَتِهِ وذكائِهِ. [2]

---

[1] يُنظر، ناصر الدّين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري. ص173.

[2] يُنظر، يحيى بوعزيز، الأمير رائد الكِفاح الجزائري. ص68، ص69.

وكان سببُ أسْرِ الأمير في فرنسا ونقض العهد، ومنعِه من السّفر إلى "عكّا"، أو "الاسكندريّة" هو أنّ فرنسا تخوّفت مِن وجودِه في دولة عربيّة، حيثُ صرّح " ألفونس دي لإمارتين" الشّاعر، وقد كان نائبًا في البرلمان الفرنسي باسم رِفاقِه أنّ وُجود الأمير في "عكّا" أو "الاسكندريّة" أشدُّ خطرًا على مصالح فرنسا من بقائه في الجزائر. [1]

أمّا في أثناء تواجُدِهِ في الأسرِ فقد وجَدَ العَزاء في كُتُبِهِ، ودراسته وعبادته، فقد داومَ على تدريس العلم، وإفادة الطّلبة من جماعتِه، فقرَأ" الصُّغرى للسُّنوسي" في علم الكلام، ورِسالة "الإمام أبي زيد القيرواني في الفقه" على مذهب" الإمام مالك" وغيرِها .كما قرأ" صحيح البخاري"، وكتاب" الشِّفاء" للإمام عيَّاض" إضافةً إلى اعتكافه على الكتابة والتّأليف شِعرًا ونثرًا، فألّف خلال إقامَتِهِ بِأمبواز ،رِسالة سمّاها "المقراض الحاد لِقطع لِسان الطّاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد، كما نظم الأمير كثيرًا من قصائدِهِ خلال هذِهِ المرحلة الصّعبة من تاريخ حياتِهِ بيل المُفاكهة والمُساجلة بيْنَهُ، وبَيْن العلاّمة الشّيخ "محمد الشّاذلي القسنطيني" ،والذي أرسَلت فرَنسا في طلَبِهِ من الجزائر للإقامةِ مع الأمير عبد القادر بسراية "أمبواز". [2]

نذكُر من هذِهِ المُساجلات هذه المقطوعة الشِّعريّة التي بعثها الأمير إلى الشّاذلي يسألُه عن حاله. [3]

. يـا قُـرَّة العَيْـنِ .

يا قُرّةَ العَيْنِ! قُلْ لِي: كَيْفَ بِتَّ فقد والله بِتُّ، وقَلْبِي في لَظَى الحزن

---

[1]. يُنظر، أحمد كمال الجزار، المفاخر في معارف الأمير عبد القادر والسّادة الأولياء الأكابر، راجعه وقدم له محمد زكي إبراهيم مطبعة العمرانية للأوفست، الجيزة، مصر (1417هـ.1997م)، (ط1)، ص37.

[2] يُنظر، محمد مراد بركات، الأمير عبد القادر، المجاهد الصُّوفي.ص24.

[3]. الأمير عبد القادر الجزائري، الدِّيوان، شرح وتحقيق ممدوح حقي، ص64.

مِمّا عَراكُم عَسى فِيهِ أُقاسِمُكُم أو حمْلُهُ كُلُّهُ لَوْ يُمكِنُنِي

حتّى يتِمَّ لنَا مِنْ وَصلِكُم غرَضٌ قدْ طالَمَا كُنت راجية من الزّمن[1]

فردّ عليْهِ الشّاذلي بِهذِهِ المقطوعة:" وقاكُمُ الله المِحن" بالوزن والرّوي نفسُها:

يا قُرّة العينِ عنّي إنّي سألْتُ جوى قد بتُّ في ألَمٍ مِن شِدَّةِ الوَهَنِ

أُكابِدُ الضُّرَ والأجْفانُ سَاهِرَةٌ هيْهاتَ ما ذاقَ طَرَفِي لَذّةَ الوَسَنِ

والآنَ لَم أك مِثلَ اللّيلِ يا سَنَدِي الحمدُ للَّهِ ربّي واهِبُ المنَنِ

جَزاكُم اللهُ عَنّا كُلَّ مَكرُمَةٍ مِنْ فَضْلِهِ ووَقاكُم سائِرَ المِحَنِ[2]

الأميرُ في مقطوعتِهِ الأولى يسألُ الشّاذلي حاله مع المَرض ويصِفُهُ بِقُرّة العين ويتمنّى لو كان معه يُخفِّفُ عنهُ ووصفَ رَغْبَةَ وِصالِهِ بِتلكَ الرّغبَةِ التي طالَما رَجاها مِنَ الزَّمَنِ.

فأجابَهُ "الشّاذلي" بِمقطوعةٍ شِعريّةٍ أُخرى على الوزنِ نفسُهُ وحرفُ الرَّوِي ذاتُهُ يُجِيبُهُ هُوَ الآخر ويَصِفُهُ بِقُرَّةِ العَيْنِ، ويروي لَهُ حالَهُ مَع المرضِ فقد باتَ فِي سَهَرٍ مِنْ شِدّةِ الوَهنِ والألمِ والنّاسُ نِيامُ، ويحمَدُ اللهَ على ما ابتلاهُ كما يشكُرُ الأمير في خِتامِها ويدعو لَهُ بالوِقايَةِ والحفظِ مِن سائرِ المِحَنِ.

---

[1] الأمير عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقيق ممدوح حقي. ص64.

[2] المرجِعُ نفسُهُ، ص65.

2. حياةُ الأمير بالمشرِقِ:

أ/. في الدّولة العثمانيّة(تُركيا):

وصلَ الأميرُ "الأسِتانَةَ" عنْ طريقِ صِقلّية فدخلَها يومَ الجُمُعةِ:8جانفي1853م وفور وُصولِهِ زارَ قبْرَ الصّحابِيّ الجلِيل" أبو أيوب خالد بن زيدٍ الأنصاريّ" عند سور "القسطنطينية"، ثُمَّ توجَّهَ إلى جامِعِ "صوفِيًّا" فزارَهُ، وقابلَ الصّدر الأعظَمَ" مصطفى باشا" الذي أكرَمَهُ وأحسنَ استِقبالَهُ. وفي اليوم الثّالِثِ مِن إقامتِهِ دُعِيَ لِمُقابَلةِ السُّلطان "عبد المجيد الأوّل" والذي رحَّبَ بِهِ شاكِرًا أفعالَهُ وخِصالهُ في الذّودِ عنْ حِياضِ الوطَنِ.

وانقضَتِ العشرُ الأوائل في الأسِتانةِ بالزّياراتِ، وتبادُلِ التّحياتِ، والأشعار لِيُغادِرَها الأميرُ مُتّجِهًا إلى "بروسه" حيثُ استقبلَهُ "خليل باشا" صِهرُ السُّلطان وأنزَلَهُ منزِلاً كريمًا. [1]

واستقرَّ الأميرُ بهذه المدينة فترةً من الزّمَنِ مُعتَكِفًا على القراءةِ والتّدرِيسِ، وكانت صلواتُهُ الخمس في الجامعِ القرِيبِ من سُكناهُ، والمعروفُ" بِجامع العرب" وقد مارسَ فِيهِ إلقاء الدُّروسِ، فقد ألقى فِيهِ " ألفية بنُ مالكٍ بِشرح المَكودي" "والسُّنوسية" بِشرحِ المُصنّف و"الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز".

كما قد أَلَّفَ في فترةِ إقامتِهِ بِها رسالَته" ذِكرى العاقِل وتنبيهُ الغافِل". [2]

ولكنْ سُرعان ما غيَّر الأميرُ مقرَّ إقامتِهِ من "بروسه "إلى "دِمشقَ"، وكان ذلك بِسبَبِ عدم تآلُفِهِ مع الأتراكِ والإحساسُ بالغُربَةِ فِيها وعدمُ الانتِماءِ. [3].

---

[1]. ينظر، عبد الرّزاق بن السّبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبُهُ، مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشّعري. (د.ب) (د.ت). ص54.

[2]. يُنظر، المرجِعُ نفسُهُ، ص55.

[3]. يُنظر، محمد مراد بركات، الأمير عبد القادر المجاهد الصُّوفي. ص24.

ب/ . حياةُ الأمير في دمشق:

. سَبَبُ اختِيارُ الأمير لِدِمشق:

لكن السُّؤال الذي يطرحُ نفسه هُو لِمَ اختار الأميرُ دِمَشقَ دونًا عنْ بقيّةِ مُدُنِ الدُّول العربيّة عِلما أنّهُ زار مُعظمها عندما كان في رِحلةِ الحجّ مع والِدِهِ؟

لقد كان للأميرِ معرِفةً واسِعة بِدِمشق عاصِمةُ الدّولةِ الأمويّة سابِقًا. فقد أقام فِيها عِدّة شهوركما تمَّ الذِّكرُ سالِفا في رِحلة الحجّ، وتعرَّفَ فِيها على أئمَّةِ الجامِع الأموي، وحضر فِيها حلقات التّدريس، ونَمَّا رصيدهُ العِلمِيّ من خلال مُحاورةِ عُلمائها، كما أنّها كانت تحفَلُ بِمآثِرِها الرَّمزيّةِ والرُّوحيّةِ التي تكونُ قد تركَت أثرَها في نفسِ الأمِيرِ. إضافة إلى أنّها كانت موطنَ إمارة الحجّ، ومُلتقى الجُموعِ والوُفودِ مِن شتّى بِلادِ الشّرقِ الإسلاميّ، حيثُ أنّهُ كان يجِدُ نفسَهُ في "بروسه" معزولا عنْ لِقاء المعارِفِ والوُجوهِ، ولا سِيَما من الأقطارِ العربيّة الإسلامية، كما أنَّ طوائف منْ مُرِيدِيهِ قدْ تناثروا في "تونُسَ وطرابُلسَ ومِصرَ"، وجاوروهُ في" الحِجاز وفلسطينَ"، وسكنُوا "الشّام والعِراقَ" فكانُوا يُراسِلونَهُ ويُثِيرون عواطِف الشّوقِ لَدَيْهِ. [1]

حطّ الأميرُ رِحالَهُ بِأرضِ "دِمشقَ" مكانَهُ الأخير في السّادس من ديسمبر1956م، ولم يكنْ رحِيلُ الأمير إلى "دِمَشقَ" وتنقُّلِه من بروسه كما قد أشيع هو الاستحياش من الزلزال والذي قد ضرب بروسه قبل وقتٍ من سفر الأمير. إنّما كان الباعث غير ذلك، كما قد وضّحنا فبالنّظر إلى إيمان الأمير، وقدرتِهِ وتقواهُ، لا يُمكن أنْ نَتصوّرُهُ يتحوّل مِنْ موطنٍ إلى آخر لِمُجرّدِ الرّغبة في السّلامة ولو كانَ هذا لَما كانَ مُجاهِدًا على رأسِ صُفوفِ جيشِهِ بيْنَهُ وبيْنَ الاستِشهاد والموتِ حدّ شَعْرةٍ، ويبذُلُ نفسَهُ في سبِيلِ الدِّفاعِ عنْ وطنِهِ. [2]

---

[1]. يُنظر، سُليمان عشراتي، الأمير عبد القادر في بلادِ المشرِقِ، مُلحق بكتاب 10سنوات في أرضِ الإسلام للجاسوس ليون روش، دار القدس العربي للنّشر والتّوزيع، وهران، الجزائر. (ط1) 2011.ص41،42.

[2]. يُنظر، المرجِعُ نفسُهُ. ص42.

وقبل وُصولِه إليها كانت ،صدَرت أوامر إلى والي دمَشقَ بأنْ يُعدَّ أحسنُ استِقبال لعبد القادر، وأنْ يُهيَأ لَهُ جمِيعَ الشُّروط المُلائمَةِ ،واللاّزمةِ لاستقراره وراحتِهِ، هُناكَ وفوْرَ وُصولِهِ توجّهَ إلى ضريحِ الشيخ الكبير" سيدي محي الدّين بن عربي" ،وبعد زيارتِهِ توجّهَ إلى المحَلَّ المُعدَّ لنُزولِهِ بِدارِ "عِزّت باشا الرّئيسي"، وكما هو الحالُ دومًا فقد وجَد الأميرُ نفسَهُ في دِمَشقَ أيضًا محطَّ الأنظار، ومِحور اهتِمام العُلماء والفُقهاءِ فشُهرتُهُ قد سبقَتْهُ إلى هُناكَ، وتَهافَتَ القومُ لِرُؤيَتِهِ والتّشرُّفِ بِمُلاقاتِهِ مُلاقاة رجُلٍ حَازَ مِنَ المَجْدِ ما لم ينَلْهُ إلاّ القلِيل النّادِر، فهُو قد جَمَع بيْنَ ألقابٍ ثلاثٍ لِتجعلَهُ أكثرَ رِفعةً في نظرِهِم، فَهُوَ الشّرِيف مِنْ نَسَبِ خاتم الأنبياءِ والمُرسلِينَ،، والعالِمُ الأدِيبُ، والفقِيه والمُجاهِدُ البطل المُقاتِلُ في سبيلِ الله، أفنى زهرَةَ حياتِهِ في الذّودِ عن وطنِهِ. [1]

وبِناءً على طلبِ عُلماء دمشق وفُقهائها بأنْ يكون الأميرُ أستاذَهُم، وبعد تشوُّقِهِم وإلحاحِهِم للاستفادة من مَعارِفِهِ وثقافتِهِ، أنشَأ صفًّا يتكوَّنُ مِن سِتّينَ عالِمًا وطالِبًا كانوا يجتمعون إليْهِ يومِيًّا في الجامع الأموي الكبير فيذهبُ إليْهِم للتّدرِيسِ والمُباحثَةِ في مُختلفِ فروعِ العِلم، وعلى الرّغمِ مِنْ أنَّ القرآن الكريم والحدِيث النّبوي الشّريف كانا قاعِدةً للدّرسِ والمُناقشةِ، إلاّ أنّهُ كانَ كثيرًا ما يختارُ نُصوصًا فلسفيّةً "لأرِسطو"، و "أفلاطون" ويأخُذُ في شرحِها، وتحلِيلِها شرحًا وتحليلاً عقلِيًا وفلسفيًّا، وكان ذلك من أجلِ مزِيدٍ من الاستِنارةِ، والاستِزادةِ بالفِكر الأجنبِيّ فضلاً على الفِكرِ الدّينيّ مِمّا جعلَ طُلاّبَهُ يتعلّقونَ بِهِ لأنّهُ قد خرجَ على الطّريقةِ المُعتادةِ في التّفسِيرِ والشّرحِ. [2] وكان حريصًا على العلمِ ونشرِهِ، فاشترى في دِمشقَ دارًا خصَّصَها لَهُ، وسَمّاها "دارُ الحديثِ "، مع إطلالة شهر رمضان المُباركِ كانَ الأميرُ يعتَكِفُ بالجامِعِ الأموي. فقد كانَ الزّاهِدُ المُتعبّدُ، والعالِمُ الفقِيهَ الحُجّةِ يبحثُ ويُنقّبُ ليُفِيدَ ويَستَفِيدَ.

---

[1]. ينظر، عبد الرّزاق بن السّبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبُهُ.ص55.

[2]ينظر، محمد مراد بركات، الأمير عبد القادر، المجاهد الصُّوفي.ص25.

ومن شِدّةِ حِرصِهِ على الأمانةِ العِلمِيّةِ كان يتحَرّاها مِنْ مَصادِرِها وأُصولِها الأولى، وفي فترة إقامتِهِ بِها استطاع الأميرُ أنْ يُولّفَ موسُوعَتهُ الجامِعةِ "كتاب المواقِف"، والتي أقدم فِيها على تناوُلِ القضايا العويصةِ في تاريخ الفِكر الإسلاميّ، وبَثَّ فِيها آراءَهُ الإصلاحيّةِ بِشكلٍ دقِيقٍ مُتفائلاً بِها في تحقِيقِ الإصلاحِ. وكان هذا المؤلّفُ الضّخمُ حصِيلَةً لِثقافتِهِ الصّوفيّةِ، كما جاء استِجابةً لِطلبِ بعضِ العُلماء الذين التمَسُوا في الأمير أنْ يُدوّن لَهُم ما يُلقِيهِ في دروسِهِ، وما يتكلّمُ بِهِ في مَجالِسِهِ. (1)

. حادِثةُ دمشق:

في أثناء إقامة الأمير بِدِمشقَ حدثت بعضُ الاضطرابات في جِبالِ "لُبنان" وكان ذلك بيْنَ" النّصارى" و "المُسلِمين"، كما كانت تحصلُ مِن قبل، إلاّ أنّ هذهِ المرَّةَ كانت أشدُّ وقْعًا حتّى تكادُ تُوصَفُ بالحرْبِ، ورغم جُهودِ الأمير وغيرِهِ للتّدخُّلِ لدى الوالي التُّركيّ حتّى لا تصِلَ الاضطرابات على الأقلّ إلى "دمشق "، إلاّ أنّهُ لم يُحرِّك ساكِنًا، وبالفِعل قد أُطلِقت شرارةُ الفِتنةِ بِدِمشقَ في :10جويلية 1860م، والتي حرّكها طِفلٌ صغيرٌ فامتدّت إلى صُفوفٍ اصطفّت للقِتال ذهب ضحِيتُها خلْقٌ كبِيرٌ، وطبعًا كان للأمير دورٌ مُهِمٌّ في هذِهِ الحوادِثِ الطّائفيّةِ دورٌ يدعو للشّرَفِ والاعجابِ. إذِ استطاعَ أنْ يُنقِذَ أكثرَ من خمسة عشرَ ألْفًا مِنَ النّصارى بعثَ بِهِم إلى منازِلِهِ وبعْدَ خمسَةَ عشرَ يومًا استطاع الأميرُ أنْ يُحوّلَ عشرة آلاف جُنديّ فرنسيّ إلى فرنسا بعْد أنْ كانوا يستعِدّون لِنسْفِ "بيروت" بِقنابِلِهِم، ويُفرّقَ جمِيع المراكِب التي كانت تُرابِطُ هُناك مُنتظِرةً تطوُّر الأحداثِ. (2)

وبعْد هذا الموقف النّبِيل، وجُهود الأمير في إخماد نار الفِتنة، قدِ انهالت على الأمير رسائل الشُّكر والامتِنان مَصحوبَةً بالنياشِين مِن كُلّ حدْبٍ وصوْب، ومِن جمِيع مُلوك ورؤساء الدُّول، كما تَصَدَّرَ كُبريات الصُّحُفِ العالميّة

---

[1] . ينظر، عبد الرّزاق بن السّبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبُهُ. ص 57،56.

[2] . يُنظر، يحيى بوعزيز، الأمير رائد الكِفاح الجزائري. ص 72،71.

والتي أشادت بِخِصالِهِ الكرِيمةِ ومواقِفِهِ الإنسانيّةِ، ومِمّا جاء في إحدى الصُّحُفِ مقولةً أورَدَها "محمد بن عبد القادر" في مُؤلَّفِهِ حيثُ دوَّنت هذِهِ الصّحِيفة «أنّهُ يوجدُ في ذاتِ عبد القادر أمران: أحدُهُما أميرُ الجزائر والعدُوّ المُخِيف للفرنسِيين والثّاني الأمير الآن في سوريا المُخلِّصُ لأُلوفٍ مِن النُّفُوسِ». [1]

بعْدَ إخمادِ نارِ الفِتنةِ، وعودةِ الهُدوءِ لِدِمشقَ والنُّفوس التي فِيها زارَ الأمِيرُ "حَمَاه" وحمص"، وتوقّفَ في حِمْصَ لِزِيارةِ قبْرِ "سيفُ الله المسلول"، ثُمَّ رَغِبَ في أداءِ فريضة الحجِّ، فرَكِبَ إلى "الاسكندريّةِ "، حيثُ استُقْبِلَ من طرفِ قناصِلِ الدُّول الأجنبيّة، وَوُجَهاءِ الشّعب المِصريّ والخِدِيوي. ثُمَّ توجَّهَ إلى "السُّويْس فجدَّة فمكّة"، وقبل دُخولِهِ "مكّةَ" أرادَ شريف مكّة استِقبالُهُ بِموكِبٍ رسمِيٍّ، إلاّ أنَّ الأميرَ اعتذَرَ مُفضّلاً دُخولَها كأبسَطِ النّاسِ. وبعْد تأدِيّتِهِ مَناسِكَ الحجِّ زارَ "الطّائفَ"، ثُمَّ توجَّهَ إلى المدينةِ لِزِيارةِ قبْر النّبيّ .ﷺ. حيثُ مكَثَ بِجِوارِهِ شهْرًا كامِلاً، ثُمّ قفلَ راجِعًا إلى دِمشق، حيثُ استُقبِلَ مِنْ طرَفِ أهلِها بِحفاوَةٍ كبِيرةٍ. [2]

وفي العاشرِ من أفرِيل1865م قام بزيارة "بيروت فالأسِتانة" ،حيثُ أجْرى مُحادَثات مع المسؤولِين كانت نَتِيجتُها عَفْوَ السُّلطان العُثمانِي على المَنْفِيين في حادِثةِ "دِمشق"، ثُمّ توجّهَ إلى "مرسيليا، ليون، باريس"، وأجرى سِلسِلةً من المُحادثاتِ معَ "نابليون الثّالث" ،وكافة الوزراء والأعيان والوُجَهاء، ثُمَّ رجعَ إلى "دِمشق" بعْدَ إقامتِهِ في "لندن" لِمُدّةِ أربعةِ أيّامٍ، وفي 1869نوفمبر حضرَ افتِتاح" قناة السُّويْس" بعْد دعوَتِهِ لها مع أعيان العالم، وقد أُشِيعَ خبَرُ موْتِهِ لكنّهُ نفاهُ ،وصرَّحَ «أنَّ الموتَ لابُدَّ مِنْهُ ونحمدُ الله على أنْ كان ذِكرُنا حسَنٌ ».[3]

---

[1]. ينظر، عبد الرّزاق بن السّبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبُهُ.ص59.

[2] يُنظر، يحيى بوعزيز، الأمير رائد الكِفاح الجزائري. ص 72،71.

[3]. يُنظر، المرجِعُ نفسُهُ. ص73.

. وفـاتُـهُ:

كان الأميرُ في شبابِهِ وكُهولتِهِ يتَمَتّعُ بِصِحّةٍ جيّدةٍ، استغلّها بِمُقارعةِ الأعداءِ ورَغم سِجنِهِ وأسْرِهِ إلاّ أنّهُ صَمَدَ وَبَقِيَ قوِيًّا شامِخًا، ولكن في أيّامِهِ الأخيرةِ أُصِيبَ بِأوجاعٍ في الكليَتَيْنِ والمَثانَةِ، وكان يَخِفُّ علَيْهِ المرَضُ أحيانًا ويَشتَدُّ أحيانًا أُخرى، حتّى وافَتْهُ المَنِيّةُ في مُنتصَفِ ليلة السّبت 24ماي1883م في قصره بِمصيف "دُمَّر" عنْ عُمرٍ سِتَّةٍ وسَبعينَ عامًا. قضى زهرَتها وبِدايتَها في مُقارعَةِ الأعداء، وميدان الحرب، وأُخرِجَ مُجْبَرًا مِنْهُ على أمَلِ العودَةِ إلَيْهِ بعدَ ثلاثِ سنواتٍ، إلاّ أنّ الأقدار لَعِبَتْ دَورَها وتمَّ نقضُ العهدِ، وإقصاؤُهُ إلى الأبد بِنفْيِهِ بعِيدًا عن أرضِ الوطن وتعَهُّدِهِ بِعدَمِ العودَةِ إلَيْهِ، إلاّ أنّهُ كانَ الأمِير بِمبادِئِهِ، أيْنَما حَلَّ وارتحَلَ يُدافِعُ على المظلومِ ويُجِيرُ المَلْهوفَ، ويأوِي مَنْ ينْشُدُهُ ويستأمِنُهُ. [1]

[1]. يُنظر، يحيى بوعزيز، الأمير رائد الكِفاح الجزائري. ص74.

المبحثُ الثّاني: الأمير الشّاعر بأرض المنفى:

1) -أثرُ المنفى في شعر الأمير من خلال قصيدتِهِ: "عذابُ الأسر ".

كان الأميرُ يمضي وقته وهو أسيرٌ في طلب العلم، وتعليم طلابِهِ من جماعته، كما كان يُبدِعُ في مجال تعلم الشِّعر، فبِسببِ تِلك الأوضاع التي عاشها جادت قريحتُهُ بِأعذبِ القصائد، وأجملِها نذكرُ منها: "عذابُ الأسر" والتي نظّمها وهو أسيرٌ في سِجنِ "أمبواز"، يصِفُ فِيها حالة الشّوق التي تعتريه، ومُختلف المشاعر التي تختلجه.

يقولُ فِيها :[1]

ماذا على ساداتِنا أهلُ الوَفا لَوْ أرْسَلُوا طيْفَ الزِّيارةِ في خَفا

يترصَّدُ الرُّقباءُ حتّى يَغْفَلُوا ويكونُ مانِعَ وصْلِنا لَيْلاًغَفا

فإذا تمَكَّنَتِ الزِّيارةُ خِفْيَةً يَأتي مُواعِد وَصْلِنا مُتلطِّفا

ويكُون قَبْل حُلُولِهِ أفرَشْتُهُ خدّي وِطاءً لِلنِّعالِ ولِلْحَفا

ويكُونُ بَيْتَ نُزُولِهِ قَلْبِي الذي –وحَياتُهم –مِن حُبِّ غَيرِهِم عَفَا

ضيْفٌ لَهُ نزلَ لدي كرامَتَهُ كَبِدٌ شَواها البُعْدُ في جَمْرِ جَفَا

يا سعدُ! إنْ كُنْتَ البشيرَ بِوصلهِ فَلَقد أتَيْتَ على المَسَرَّةِ والوَفَا

لَوْ أنّ نَفْسِي لي؛ إلَيْكَ بَذَلْتُهَا وَأرَاهُ بَذْلَ مُقَصِّرٍ، مَا أنْصَفَا

---

[1] الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي. ص99.ص 100.

وتَكُونُ؛ يا سعدُ! المُساعدَ لِلَّذِي –مَنْ هَجَرَ مَنْ يَهْواهُ –صار على شَفا

لمْ يُبْقِ يومُ البَيْنَ والهجر. الذي خُلِقا لِتعذِيبِ الأحِبَّةِ مُسْعِفا

إلاّ صَبابَتُهُ وجِسْمًا قَدْ غَدا مُلقَى كَشن بالفلا، لنْ يَحْصفا

زَفَراتُ قلْبِي؛ جَمْرُنارٍ أجَّجَتْ مِنهُ دُمُوعُ العَيْنِ؛ فاضَت ذَرَّفَا

بمحاجر من حاجر أقْذاء؛ قدْ طرَدَتْ ضُيُوفَ الطَّيْفِ؛ جاءَتْ طُوَّفَا

هَلْ مِنْ مَنَام لِلَّديغِ بِمَرّةٍ فضْلاً عنِ المرّاتِ؛ أوَهلْ مَنْ غَفا؟!

ما إنْ تألَّقَ بَرْقُ سلع، والحمى حَتّى تفِيضَ النّفسُ مِنهُ تأسُّفا

وأرَاهُ سَيْفًا صارِمًا، وسَطَ الحَشَا فِعْلَ الأفَاعِي، أوْ شِهابًا ما انْطَفَا

يَحْكِي زَفِيرِي رَعْدَهُ وَرِياحَهُ وبِوَبَلِهِ؛ حَاكَى دُمُوعِي الوَكَّفا

وإذا جَرى ذِكرُ العَقِيقِ وأهلَه أجْرى العَقِيقَ؛ تَأسُّفًا وتَلَهُّفا

يا أهْل طيْبةَ! ما لَكُم لمْ تَرْحَمُوا صَبًّا غَدَا لِنَوالِكُم مُتَكَفِّفَا؟!

لا تَجمَعُوا بَيْنَ الصُّدودِ وبُعْدَكُم حَسْبِي الصُّدُودُ عُقوبَةً فَلقَد كَفَى

لمَ أدر شيْئا قبْلَ مَعرِفَةِ الهَوَى حُبّي لَكُم؛ ما كانَ قَطُّ تَكَلُّفَا[1]

[1] الأميرُ عبد القادر، الدّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي. ص100، ص 101.

ما بالُهُم يا صاحِ! لَمْ يَتذكَّـرُوا صَبًّا كَئِيبًا في المَحبّةِ مُدْنَفـا؟!

ما قيلَ: ذاكَ أسِيرُنا وقَتِيلُنا بَيْنَ العَوادي، والأعادِي مُثْقَفَا

قَلْبِي الأسِيرُ لَديْكُم والجِسْمُ في أسْرِ العُداةِ، مُعَذّبًا ومُكْتَفَـا!

حاشاكُم! لَجَميلُ ظَنّي فِيكُم أنْ تُشَمِّتُوا فِيَّ العَدُوَّ المُرجِفَا

ولطالما؛ لام العَذُولُ بِحُبّكُم وأطال عَتَبِي، نَاصِحًا وَمُعَنِّفا

ولكم سعى؛ كيْما يَصْرِفَ وِجْهَتِي عَنْ وَجْهِ وِدِّكُم، وَلَمْ يَكُ مُصْرِفا

ويَوَدُّ لَوْ أنّي سَلَوْتُ هَوَاكُم فَيَكُونُ لِي خِلاً وَفِيًّا مُنْصِفَا

قَلبُ الشَّجِيّ، كَما عَلِمْتُم إنَّهُ لا يَنْثَنِي عَنْ حُبِكُم مُتَحَوِّفَا

يَبْغِي الوِصَالَ وَلَوْ تَمَزَّقَ تَالِفًا ويَلِذُّ أنْ يَلْقَى العَذابَ وَيَتْلَفَا

يَسْرِي؛ وَلَوْ أنَّ الظَّلامَ عِداتُهُ ويَسِيرُ؛ لو كان النَّهَارَ المُرْهِفا [1]

---

[1] الأميرُ عبد القادر، الدّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي.ص101، ص102.

. اللّغة والأسلوب:

أ) **–الألفاظ:** تُعدُّ اللّغة هي القالب الذي يصبُّ فِيهِ الشّاعر عُصارة مشاعِرِه، وعواطِفِه ليصقُلها بذلك الشّكل البهيّ وبالنِّسبة للأمير فإنّ لُغتَهُ المُستخدمة في قصائدِهِ مُتميّزةٌ بالفصاحة والجزالةِ، والسّبَبُ عائدٌ إلى ذلك التّريض الطّويل في مجال التّمرُّس، والأخذ بالقواعد الفنّية، واجتيازِهِ لمرحلة التّحصيل المعرفي ليبلُغ بذلك لمُستوى الاستواء والاقتِدار. [1]

فذلك التّعليم الذي شبَّ عليهِ في أحضان الزّاوية الروحيّة، وترحالِهِ وسفرِهِ وتعلُّمِهِ فيها صقل خلفيّتَهُ الشِّعريّةِ والمعرفيّة، ليكوّن بذلك ذلك الرّصيد اللّغوي المتين في عصرٍ قد انتشر الضُّعف فيه في جذور الشِّعر ليعود هُو بِهِ إلى تِلك العصور الزّاهيةِ للّغة. [2]

استخدم الأمير في قصيدتِهِ مجموعة من الألفاظ الدّالة على شدّة الشّوق والمُتمثِّلة في:"كبِدُ شواها البُعدُ، جمرُ الجفا، جمر نار، فاضت، ذرفا، جاءت طوفا" [3]

تنوعت هذه الألفاظ ما بين ألفاظ تنتمي لكلِّ ما يخصُّ الحرارة واشتعال النّار من، شويٍ، وجمرٍ ونار، ليُظهر مدى شوقِهِ وعذابِهِ بعيداً عن أرض وطنِهِ وأهلِهِ.

إضافة إلى استخدامه لألفاظ تنتمي وتدلُّ على كلِّ ما يخصُّ الماء من: فاضت وطوفا، ليصف بِها دُموعهُ التي تنسكبُ على فِراق أهلِهِ، وشِدّة حزنِهِ، ليُكوّن بذلك لنا تضاداً لإيصال مشاعِرِه.

---

[1] يُنظر، سليمان عشراتي، الأمير عبد القادر المفكِّر مساجلات في قضايا اللّغة والمعرفة وفقه الخطاب القرآني.ص52.

[2] يُنظر المرجع نفسُهُ. ص53.

[3] الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي.ص101، 102.

وبالنّظر إلى أطراف قصيدتِهِ نجد تنويع الأمير في ذِكر البِقاع والأماكن المُقدّسةِ.

. حاجر: منزلٌ بالحجاز في البادية. . **العقيق**: مكان بالحجاز.

. طيبة: من أسماء المدينة المنوّرة. . **سلع**: موضِعٌ في الحجاز كثُر ذِكرُهُ في شعر المتشوّقين للحجّ ولعلّهُ أراد بِهِ المسجد النّبوي الشّريف. [1]

يعود سببُ استِخدام هذِهِ الأسماء في قصيدتِهِ هو تشوُّق الأمير لها، وأيضًا إلى نشأته في أسرةٍ دِينيّةٍ مُحافظة مِمّا غرس في نفسِهِ حبَّ العبادة والتّقوى والزُّهد، فلا عجب أنْ نجدَهُ ينحُو منحًى صُوفيًّا خلال حياتِهِ، ويتجلّى ذلك من خلال قصائدِهِ. [2]

كما نجد استخداماً لألفاظٍ معجميّةٍ صعبة منها:

. **الصّبابة**: البقيّة . **الشن**: القربةُ الصّغيرة . **يخصف**: يُرقّعُ. [3]

يُعدُّ استخدام هذِهِ الألفاظ مِرآةً عاكسة على ثقافة الأمير وتُراثِهِ الفِكري، وتأثُّرِهِ الكبير بالشِّعر العربي القديم. [4]

---

[1] . الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي.ص101، ص102.

[2] . يُنظر، عبد الرّزاق بن السّبع، الأمير عبد القادر وأدبُهُ. ص127.

[3] . المرجع السّابق. ص99، 100.

[4] –يُنظر، سليمان عشراتي، الأمير عبد القادر الشّاعر، مدخل إلى تحليل الخطاب الشِّعري في محطّة المابعد، دار القدس العربي للنّشر والتّوزيع، وهران، الجزائر، 2011، (ط2)، ص 108.

ب) -العاطفة:

تعتبرُ العواطف الانفعال النّفسي المُصاحب للنّصِّ، وقد يكون الانفعال هادئًا أو متوسطاً أو جامِعًا. فجانِبُ الغزل يُناسِبُهُ الهُدوء، والحُزنُ يُناسِبُهُ الهدوء. فالهُدوءُ الأوّلُ ينِمُّ على الفرح ومُمتدٌّ إليهِ، أمَّا الثّاني فمُنكمشٌ حزِين[1]،

وبالنِّسبةِ إلى العاطفةِ التي تتخلّلُ قصيدة الأمير في أبياتِهِ قائلا:

لمْ يُبْقِ يومُ البَيْنَ والهجر الذي خُلِقا لِتعذِيبِ الأحِبَّةِ مُسْعِفا

إلاّ صَبابَتُهُ وجِسْمًا قَدْ غَدا مُلقًى كَشنٍّ بالفلا، لنْ يَحْصفا

زفراتُ قلبي جمر نار أجَّجَتْ مِنهُ دُمُوع العَيْن فَاضتْ ذَرّفَا[2]

من خلال وصف الأمير حالته وحُزنهُ وهُو في الأسر بِسَبَبِ الهجر، وبُعْد المسافة وعدمُ قُدرتِهِ على رُؤية أحِبَّتِهِ يظهرُ لنا مدى عُمقُ العاطفةِ النّابعةِ من المنفى والأسْرِ والتَّهجِيرِ قصْرًا من أرض الوطن، وعدمُ ألفه لهذِهِ الحياة بعدما كان حُرًّا طلِيقًا صارَ أسِيرًا.

---

[1] -يُنظر، عبد القادر أبو شريفة وآخرون، مدخل إلى تحليل النّصِّ الأدبي، دارُ الفكر، عمان المملكة الأردنية الهاشميّة. (2008م -1428هـ)، (ط4). ص26.

[2] -الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي.ص100.

ج) –الأساليب المُستخدمة: الأساليبُ التي تنحصرُ في قسمينِ:

. أساليب إنشائيةٌ، وخبريّة ووجهُ الحصر في ذلك: أنّ الكلام إنِ احتمل الصِّدقَ والكذِبَ لِذاتِهِ، والمُراد بالصِّدقِ ما طابقت نِسبَةُ الكلام فِيهِ الواقِعَ، وبالكذِبِ إذا كانَ العكسُ. وإنْ كان الكلامُ بِخلاف ذلك. أي لا يحتملُ الصِّدق والكذِب لِذاتِهِ، لعدم تحقيق مدلوله في الخارج وتوقُّفِهِ على النُّطقِ بِهِ، سُمِّيَ كلامًا إنشائيًّا[1].

وفي بداية قصيدة الأمير قدِ استهلَّها بِأسلوب الاستِفهام في قوله:

ماذا على ساداتِنا أهلُ الوَفا لَوْ أرْسَلُوا طيْفَ الزِّيارةِ في خَفا[2]

ومن المعروف أنّ أسلوب الاستفهام هُو من الأساليب الإنشائيّة الطّلبيّة.

وهُنا الأمير لا يستفهِمُ لينتظر إجابة، بلْ كان الاستفهام الذي افتتحَ بِه قصيدتهُ مُوجَّهًا لأولئك السّادة، والمقصود هُنا السّادة الصُّوفيّين، لو أنَّهُم أرسلوا طيفهُم لزيارتِهِ في دُجى اللّيل والخفاء، وكان الغرض منهُ: التّرجّي والتّمنّي، لو يتحقّق هذا الرّجاء.

كما انّهُ في بيتٍ آخر من قصيدته يُستخدم أسلوب النِّداء في قوله:

يا سعدُ إنْ كُنت البشير بِوصله فَلقَد أتَيْتَ على المسرَّة والوَفا[3]

في هذا البيت يُنادي الأمير ذلك الطّيف، واستخدم في ذلك أداة النِّداء "يا"، والتي تُستخدم للبعِيد وذلك لِبُعدِهِ عنهُ، ويُخاطبُهُ قائلاً: لو كان البشِير باللِّقاء فلقد جاء على المسرّةِ والوفا، وكان الغرض منهُ التّمنّي، تمنّي اللِّقاء ولمّ شملِ الفِراق.

---

[1] يُنظر، محمد هارون عبد السّلام، الأساليب الإنشائيّة في النّحو العربي. مكتبة الخانجي للنّشر، القاهرة، مصر. (1421هـ ،2001م)، (ط5). ص10، ص13.

[2] الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي. ص 99.

[3] المرجع نفسُهُ. ص100

كما يعود لاستخدام أسلوب الاستفهام حيثُ يقول:

هلْ من مَنام للدِّيغ بِمرّة فضلا عنِ المرّات أوْ هل من غَفا[1]

في هذا الاستفهام يتمنّى الأمير غفوةً، أو لرُبّما منام للدِّيغ وهذا لرُؤية الطّيف الذي يزوره في حُلُمِهِ لِيُؤنِسَهُ في وِحدتِهِ.

لِيعود إلى النِّداء في بيتٍ آخر بقولِهِ:

يا أهْل طيْبةَ! ما لَكُم لمْ تَرْحَمُوا صَبا غَدَا لِنَوالِكُم مُتَكَفِّفَا؟![2]

يُنادي الأمير في هذا البيت أهل طيبةَ، وكان هذا النِّداء مُحمّلاً بِنوعٍ من العِتاب بِسبَبِ عدم رحْمَتِهِم لِشوقِهِ والرّغبَةِ في وِصالِهِ. ثُمَّ ينتقِلُ بعد ذلك لاستِخدام أسلوب التّعجُّب في قولِه:

ما بالُهُم يا صاحِ! لَمْ يَتذكَّرُوا صَبَا كَئِيبًا في المَحبّةِ مُدْنَفَا؟!

ما قيلَ: ذاكَ أسِيرُنا وقَتِيلُنا بَيْنَ العَوادي والأعادِي مُثْقَفَا [3]

أيضًا كان هذا التّعجُّب مُحمّلاً بالعتاب لعدم تذكُرِهِم لَهُ، وعدم سُؤالِهِم عن ذلك الأسير الذي كان مُكبَّلاً في حِصنِ الأعداء.

---

[1] -الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي. ص100.

[2] المرجع نفسُهُ.ص101

[3] المرجع نفسُهُ.ص101.

تنوّعت أساليب الأمير بيْن الأساليب الإنشائيّة الطّلبيّةِ والمُتمثِّلة في أسلوبي النِّداء والاستِفهام، وكذا الأساليب غير الطّلبيّة والمُتمثِّلة في أسلوب التّعجُّب، ولتصُبّ كُلُّها في خانتِه، أمّا خانة التّمنّي والتّرجّي، أو خانة العتاب، وهما الغرضان المُناسِبانِ لِحالةِ الأمير السّجِين. فهُو إمّا يتمنّى الوِصال أو اللِّقاء أو يُعاتِبُ خِلاّنَهُ لِلبُعدِ والفِراق.

د) –الصُّورة: اقتصر مفهوم الصُّورة في القديم على التّشبيه والاستعارة، إلاّ أنّ المفهوم الجديد قد وسّع من إطارها، فلم تعُد تلك الصّورة البلاغية فقط، بلْ قد تخلو من المجاز فتكونُ عبارات حقيقيّةُ الاستِعمال ومع ذلك فهي تُشكِّل صورة دالة على خيالٍ خِصبٍ. [1]

وفي هذا الصّدد سنتطرّق لبعضٍ من الصّور البيانيّة الموظّفة في هذه القصيدة.

1) –الصّور البيانيّة:

في قوله:

ويكُون قَبْل حُلُولِهِ أفرَشْتُهُ خدّي وِطاء لِلنّعالِ ولِلْحَفا[2]

*(أفرشتُهُ خدّي) ⬅ استعارة مكنيّة.

إذ شبّه الشّاعر(خدّهُ) ب(الحصير)الذي يُفترش وحذفهُ أي الحصير (المُشبّه به) وترك قرينةً دالّةً عليهِ الفعل: (أفرشتُ) على سبيل الاستعارة المكنيّة. وهدفها تقريب المعنى من خلال تجسيد الصورة المعنويّة في صورة محسوسة، وبالتّالي إيصال فكرة شدّة شوقهِ وتلهُّفِه للِّقاء.

---

[1] –يُنظر، على البطل، الصورة في الشِّعر العربي حتّى آخر القرن الثاني الهجري. دراسة في أصولها وتطوُّرِها، دار الأندلس للطباعة والنّشر والتّوزيع (د، ب)، (1401هـ –1981م) (ط2) ص25.

[2] الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي. ص 99.

وقولُه:

ضيفٌ؛ لهُ نُزُلٌ لديَّ، كَرامَةً كَبِدٌ؛ شَواها البُعدُ، في جمرالجفا [1]

*(كَبِدٌ؛ شَواها البُعدُ) ⬅ استعارة

شبّه (حالته النّفسيّة المُتألِّمة) محذوف، بالكبد (المشبّه بهِ) مذكور، الجامع بينهما هو الفعل :(شوى). فالكبد على الجمر، والحالة النّفسيّة شواها حرّ الفراق وشدّة الشّوق، وعدم السُّؤال على سبيل الاستعارة التّصريحيّة.

كما نوّع الأمير في استخدام التّشبيه مثلما ورد في قوله:

إلاّ صَبابَتُهُ، وجِسْمًا قَدْ غَدا مُلقًى؛ كَشنٍّ بالفلا، لنْ يُخْصفا [2]

في هذا البيت نجدُهُ قد استوفى جميع أركان التّشبيه: إذ شبّه(الجسم) بعدما أرهقهُ البعد وأضناه، بشنٍّ (قِربةٌ صغيرة) المشبّه بهِ، تهرّعت من فرط الاستعمال، لوجود علاقة مشتركة (وجه الشّبه) هو: ملقى، لن يخصفا. وربط بينهما بأداة :(الكاف) وهذا على سبيل التّشبيه التّام.

---

[1] الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي. ص 99.

[2] المرجع نفسُهُ. ص 100.

2) . المحسنات البديعيّة:

. التّصريع البديعي: التّصريع هو اتِّفاق الشّطران معًا في البيت الأوّل من القصيدة، وقد اعتنى الشُّعراء القُدماء بِهِ كأحد مقاييس الذّوقُ والجمال. فلطالما اتُّخِذَ وسيلة لتزيين الشِّعر وبِدايات القصائد، والتّصريع البديعي يقتصر على التّماثُل الصّوتي للقافيّةِ [1] ويبدو هذا جليًا في قوله:

ماذا على ساداتِنا أهلُ الوَفا لَوْ أرْسَلُوا طيْفَ الزِّيارةِ في خَفا[3]

التِّكرار: وهو من الأساليب المُلفتة للانتباه، وهو الإعادة مرّة بعدَ أخرى، ويراهُ " السُّيوطي" بأنّهُ من سُننِ العربِ التِّكرير والإعادة، إرادة الإبلاغ بحسبِ العنايةِ بالأمر، وقد اهتمَّ المُحدثُون بِهِ تِبعًا لِسُنّةِ القُدماء، ففِي التِّكرار نجدُ الشّاعر سلّطَ الضّوء على العبارة، ويكشف عن اهتِمامه بِها. فتركيزُ الشّاعر على لفظة مُعيّنةٍ وتكرارُها دليلٌ على الفكرة المُراد تبليغُها. [4]

---

[1] ايُنظر، جميلة روباش، بنيةُ الخطاب الشِّعري عند المنداسي التِلمساني، دراسة أسلوبيّة مذكرة مُقدّمة لنيل شهادة المجاستبر، تخصُّص أدب جزائري قديم، سنة 2006م/2007م جامعة محمد خيضر، بسكرة. ص45.

[2] الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي. ص 99.

[3] يُنظر المرجع السّابق. ص47.

[4] الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي. ص101.

وهو أنواع، وما يهُمُّنا هو التِّكرار الاشتقاقي والموجود في قصيدة الأمير، والذي يعني تِكرار الصِّيغ من أصلٍ معجمي واحد، ونجِدُهُ في قوله:

ما قِيل ذاك **أسيرُنا** وقَتِيلُنا بَيْن العَوادي والأعادي مُثَقَّفا

قلبي **الأسيرُ** لديكم والجسم في **أسر** العُداة مُعذَّبا ومُكتَّفا[1]

أعاد الأمير تِكرار لفظة الأسر والأسير، لِشُعورِهِ المرير بِسلبِ حُرِّيتِهِ، والتّخلِّي عنهُ، وعدم اعتِيادِهِ على عيش هذه الحياة، فكيف لشاعرٍ حرٍّ اعتاد العيش في ميدان القتال أن يكون حاله بين زنزانة الأسر في أرضِ العُداة.

هـ) . الصّوت: يُعدُّ الصّوت من الظّواهر الأساسيّة والتي ينبغي على الدّارسِ أنْ يلتفِت إليها في دراستِهِ لأيِّ قصيدةٍ ليرى نوع الأصوات التي بُنِيتْ عليها القصيدة، وتمَّ الاعتِمادُ عليْها من طرفِ الشّاعر لِتُحيلَهُ بالضّرورةِ لِحالتِهِ الشُّعوريّة، أو المُبتغَى من نظمِهِ لها، وفي قصيدة الأمير وبِدِراسَتِنا لها تمَّ اعتِمادُ الأمير على حرف **"الفاء"**، ناهيكَ عن اتّحاذِهِ رويًّا للقصيدة. فبِمُلاحظتِنا للأبيات تكرّرَ حرف **الفاء** في العديد من الأبيات. ومثال على ذلك قولُهُ:

ماذا على ساداتِنا أهلُ الوَ**فا** لَوْ أرْسَلُوا طيْفَ الزِّيارةِ في خَفا[2]

وقولُهُ أيضًا:

بمحاجر من حاجر أقْذاء قدْ طرَدَتْ ضُيُوفَ الطَّيْفِ جاءَتْ طرَفا[3]

لتُشكِّل بذلك نسبة 4.30% من مجموع حُروف القصيدة، ومن صفات الفاء أنّها صوتٌ رخوٌ مهموس

---

[1] الأميرُ عبد القادر، الدّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي. ص101.

[2] المرجع نفسه، ص 99.

[3] المرجع نفسُهُ. ص100.

شفوي ويتكوّن بِأنْ ينْدَفِعَ الهواءُ مارًا بالحُنجُرةِ دون أنْ يتذبذب معهُ الوتران الصّوتيان، ثُمَّ يتّخِذُ الهواء مجراهُ في الحلقِ والفمِ حتّى يصِل إلى مخرج الصّوت، وهو بيْنَ الشّفَةِ السُّفلى وأطراف الثّنايا العُليا، ويضِيقُ المَجرى عِند مخرجِ الصّوت فتسمعُ نوعًا عاليًا من الحفِيف الذي يُميّزُ **الفاء** بالرّخاوةِ. وكانت في مُعظمِها مفتوحةً، والفتحةُ تُعدُّ من أصواتِ اللين المُتّسِعةِ أرفَقَها في القافيّةِ بِألِفِ المدّ. [1]

وقدْ عبّر اختيارُ الفاء عن حالة الأمير، فاستِخدامُهُ لِهذا الحرف الرّخوِ المهمُوسِ بيَّنَ حالة الحُزنِ الشّديد التي هُوَ فِيها، وبإرفاقِها بالفتحةِ وحرفُ المدِّ بيَّنَ مدى اتّساعِ هذا الحُزن وغَرقِهِ فِيهِ.

وفي قصيدةٍ أخرى عَنوَنَها الأميرُ بِ" **أبى القلبُ**" يتحنَّنُ الشّاعر إلى منزِله في بروسّا بِتُركيا حيثُ كانت إقامتُهُ الأولى بعدَ إطلاق سراحِهِ من سُجون فرنسا، ويجبُ القولُ أنّ مشاعرهُ نحو الوطن تستثار حتمًا عن ذلك السّبيل إذْ لابُدّ أن يقعَ التّطابُقُ بيْنَ مشاعِرِ الحنِين التي كان قلبُهُ يحمِلُها لِبروسا، وبيْن مشاعِرِ الحنِينِ إلى الوطن البعيد، والتي كانتْ تُسكنهُ جُرحًا لا يُزايله في يقظةٍ ومنامٍ، أي أنَّ فضاءَها كان يُحِيلُهُ إلى أعزّ فضاءٍ محفورٍ في قلب الأمير **"الجزائر" الوطن الأمّ.**" [2]

- **غلاءُ الدّار بالجار:**

أبَى القلبُ أنْ يَنْسَى المَعاهِدَ مِن برُوسا وحُبّي لها بيْنَ الجَوانِحِ قد أرْسَى

أكلّفُهُ سِلْوانها، وهُوَ مُغْرمٌ فهيْهات! أنْ يَسْلو. وهيْهات! أن ينسَى[3]

---

[1] يُنظر، أنيس إبراهيم، الأصوات اللّغويّة، مكتبة الأنجلو المصريّة للنّشر، مصر. 1975م. (ط5)، ص 42، ص46.

[2] يُنظر، سليمان عشراتي، الأمير عبد القادر الشّاعر، مدخل إلى تحليل الخطاب الشِّعري في محطّة المابعد. ص215.

[3] الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي. ص115.

تَباعَدتُ عنْها؛ وَيْحَ قلبِي! بَعْدَها وخلَّفتُها والقلْبُ بِها أمْسَى

بِلادٌ؛ لهَا فَضلٌ على كُلِّ بلْدةٍ سِوى مَنْ يَشُدُّ الرّائرون لها الحِلْسَا

ما جَازها فَضلٌ، ولا حَلّ دُونَها سواها نجومٌ، وهيَ أحْسَبُها شَمْسا

عليّ، مُحَالٌ بَلدَةً غَيْرُهَا أرَى بها الدِّين والدُّنيا طهوراً ولا نَجسا

وجامِعُها المشهورُ؛ لم يكُ مِثْلَهُ بِهِ العِلْمُ مَغروسٌ، بِهِ كَمْ ترى درْسا؟!

وَسُلْطانُها؛ أعنِي: الأمير رئيسها بِهِ؛ افتَخرَتْ "بُرْسا" فَأعْظِمْ بِهِ رَأْسا!

ومَنْزله الأعلى حَكى لِي روضةً به الفخر قد أمسى به الفضل قد أرسى

بها آل عُثمان الجَهابِذَةِ الأُلَى أشَادُوا منار الدِّين وابْتَذَلُوا النَّفْسا

لِيَبْكِهِم لِلدِّين مَنْ كَانَ بَاكِيَا فما شامَ هذا الدِّينُ في عَصْرِهِم نَحْسَا!

فكَم عَالِمٍ فِيهِم ؟!وكَم من مُجاهدٍ! وَكَمْ مِنْ وَلِيٍّ، قد تخيَّرها رمْسا؟

ألا! ليْتَ شِعري، هلْ أحلُّ رِياضَها؟ و«بنار باش»، هَلْ أَطِيبُ بِهِ نَفْسَا؟!

فيصبُو بها في العيدِ مَنْ ليْسَ صَابيًا ويَفرح مَحْزُونُ الفُؤاد؛ ولا يَأسى

وكَيْفَ «جكركه» بعْدَنا وقُصُورُها؟! تراها الثُّرَيَّا، إذْ تَوَسَّطتِ القَوْسَا

ومَنْ تحتِها؛ نَهْرٌ جَرَى مُتَدَفّقًا يشابُهُ ثُعباناً؛ وَقَدْ خَشِيَ الحِسّا

فَهَبْنِي أسْلُو أرضَها بِتَكَلُّفٍ؟! فَلَسْتُ بِسَالٍ للأهَالي وَلا أنْسَى

ومِنْ أجْلِهِمْ؛ حُبّي لها وتَشَوُّقي وإنَّ غَلاءَ الدّار؛ بِالجار قد أمْسَى[1]

---

[1] الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي. ص115. 116، 117.

أناَسٌ؛ بِهم أهْلي سَلَوْتُ وبلْدتي وفي كُلِّ آنٍ؛ قَد رأى نَاظِري أُنْسَا
وفارقْتُ أهلي؛ مُذْ تجمَّع شمْلُنا وأمَّنْتُ؛ لا غَمًّا أخَافُ، ولا نَكْسَا

مَكارِمُ أخْلاقٍ، وحُسْنُ شمَائلٍ وَلِينُ طِباعٍ، واللَّطَافَةُ لا تُنْسَى

سَقَى الله غَيْثاً، رحْمَةً وكرامةً أراضٍ، بِها حَلّ الأحِبَّةُ مِنْ بُرسا[1]

الألفاظ: استخدم الأمير في قصيدته لِوصفِ جمال هذا المكان الذي لبِثَ فِيهِ، وهي **"بروسّا"** مجموعة من الحُقول الدّلالية، لِيُبيّن شوقهُ وجمالَها، ومكانتَها في نفسِهِ.

1) -الطّبيعة:" سِواها نُجوم، وهي شمسٌ، روضةٌ، ثُعبانًا، أراضٍ "[2] **لِيُبيّن** جمالَها وحُسنها.

2) – الألفاظ الخاصّة بالحنِين:" أبى القلبُ أن ينسى، تباعدتُ عنها، ويحَ قلبي، خلّفتُها والقلبُ خلفي، حُبّي لها وتشوُّقي، فارقتُ أهلي"[3]

نوّع الأمير في استِخدام الألفاظ الدّالة على مدى حُبّهِ لها، وصُعوبة الفِراق عنها وحنِنُهُ وحتّى اشتِياقُهُ لها.

3) –حقلٌ دلاليٌّ خاصٌّ بالأماكن التي في بروسّا: "المعاهدُ، بنار باش، جكركة قُصورها، جامِعُها [4]

ذكر الأميرُ الأماكن التي اعتاد ارتِيادها في بروسّا وفضل كلّ مكان مكانته سواء العلميّة أو الجماليّة، أو حتّى

---

[1] الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي. ص 117، 118.
[2] المرجع نفسُهُ. ص 117، 118.
[3] المرجع نفسُهُ. ص117، 118، 119.
[4] المرجع نفسه، ص117 ،118.

السِّياسيّة، الاقتصادية، كما أنّ ألفاظ القصيدة قد تميّزت بالسُّهولة، والبساطة في مُعظمِها ماعدا بعض الألفاظ المُعجميّة القديمة والتي كان استِخدامُها عائدا كما تمّ ذِكرهُ إلى ثقافة الأمير. مثل: استخدامه للفظةِ **"الجوانح"** والتي هي عِظامُ الصدر الحانية على القلب والرِّئتيْنِ والكبِد. [1]

العاطفةُ: جمعت أبيات القصيدة خيط من عاطفة الحنين والامتنان، الحنين والشّوق الذي نتج عن بُعدها وفراقِها والامتنان لها واستقبالهِ من طرفِها.

الأساليب المُستخدمة:

أسلوب الاستفهام:

فكَم عَالِمٍ فِيهِم ؟!وكَم من مُجاهدٍ! وَكَمْ مِنْ وَلِيٍّ، قد تخيَّرها رمْسا؟ [2]

في هذا البيت يتعجّبُ الأمير من مكانتِها عند العلمية، فلا عجب أنْ يتخيَّرَها العُلماءُ والمجاهِدون، والولاّة قبلةً لهم.

وفي بيتٍ آخر يقولُ:

ألا! ليْتَ شِعري، هلْ أحلُّ رِياضَها؟ و«بنار باش»، هَلْ أَطِيبُ بهِ نَفْسَا؟![3]

يتمنّى الشّاعرُ أنْ يبقى في رِياضِها، ويتعجّب من جمال «بنار باش» فكيف للمرء ألاّ يرتاح، وتطيبُ نفسُهُ بِها.

وكَيْفَ «جكركه» بعْدَنا وقُصُورُها؟! تراها الثُّرَيَّا، إذْ تَوَسَّطتِ القَوْسَا[4]

ويتعجّب ويتغنّى بِجمال «جكركه» وهي أرفع أحياء بُرسا وجمالها من قُصورِها العاليةِ.

---

[1] الأميرُ عبد القادر، الدِّيوان، شرح وتحقِيق ممدوح حقي.ص115.

[2] المرجع نفسه. ص116.

[3] المرجع نفسُهُ. ص117.

[4] المرجع نفسُهُ. ص 117

نجِدُ أنَّ الأمير اقتصر في الأساليب الانشائيّة على استِخدام أسلوب الاستِفهام لمناسبتِهِ لغرض القصيدةِ، والذي نجِدُهُ يتأرجحُ بيْنَ الحنينِ إليها، وحُبِّهِ لها، ووصفِها وتذكُّر مواطن الجمال فِيها.

الصّوت:

قد تخيّر الأمير في وصف هذه اللّؤلؤة التي تعتزّ بِها تركيا " السّين" حرف روي لقصيدتِه، ومن صفات هذا الحرف أنّهُ رخوٌ مهموس يختلف بعض الاختلاف في مخارجه باختلاف اللّهجات العربيّة، وحتّى باختلاف الأفراد لكنّها ليست ذات أهمِّية من النّاحية اللّغويّة، وعادةً ما تكونُ مُرتبطةً بشدّة الصفير وتفاوته إلاّ أنّ الاتّفاق هو: أنّ نُطق السِّين يتشكّلُ باندفاع الهواء مروراً بالحنجرةِ فيُحرِّكُ الوتران الصّوتيانِ ثُمّ يأخذُ مجراهُ حتّى يصل إلى الحلق فالفم، وهو كما تقدّم عند التِقاء طرف اللِّسان بالثّنايا السُّفلى أو العُليا، بحيثُ يكون بين اللِّسان والثّنايا مجرى ضيّقاً جدًّا يندفعُ خلاله الهواء فيحدثُ ذلك الصّفيرُ العالي، وهذا عند اقتراب الأسنان السُّفلى من العليا في حالة النّطق بِها. [1]

وقد تطابقت صفات هذا الصّوت مع حالة الشّاعر التي تأرجحت بين الحزن على فراقها، والامتنان والاعتزاز بمعالمِها.

---

[1]. يُنظر، أنيس إبراهيم، الأصوات اللّغويّة. ص 68.

خاتمة

خاتمة:

من خلال قيامنا بهذا العمل توصلنا إلى مجموعة من النتائج المهمّة مفادها

ما يلي:

- أنّ المنفى ليس بوليد العصر والسّاعة بل تعود أصوله إلى ما قبل الإسلام عند العرب أي مُنذُ العصر الجاهلي، إلاّ أنّهُ لم يكن فنًّا قائمًا بحدِّ ذاتِهِ وذلك لعدم ترسيم حُدود الوطن، غير أنّ موضوع الحنين كان جليًّا في بعض قصائد الشّعراء الجاهليين تجسّد في الحنين إلى الدِّيار والقبيلة وحتّى الحبيبة.
- ظهر الحنين في صدر الإسلام وانعكس في قصائد الشّعراء المسلمين بسبَبِ بُعدِهم وخروجِهم من أُمِّ القُرى مُضطرّين غير باغِين.
- عودة انعكاسه في قصائد الشّعراء الأمويّين بِسبَبِ ظُلم الحُكّام والفقر، وطلب الرّزق، إضافة إلى عامل الفُتوحات الإسلاميّة، ورغم الاستقرار السّياسي والاقتصادي الذي شهدهُ العالمُ الإسلامي في العصر العبّاسي إلاّ أنّ ظلال هذا الأخير قد لاحت في بعض القصائد للأسباب السّابقة الذِّكر.
- مع بزوغ العصر الحديث تأصّل المنفى وأصبح لونًا شعريًّا قائماً بِحدِّ ذاتِهِ صاحب حركة المدِّ الاستعماري والتي بدورها ساهمت في إقصاء الشُّعراء وإبعادِهِم عن أوطانِهِم بدايةً بالأمير عبد القادر، فالبارودي، أحمد شوقي وآخرون ...
- إعادة الحياة للشِّعر العربي بعدما دخل في فترة رُكودٍ واستكانةٍ من طرف الأمير وذلك بِمُحاكاة قصائد القُدامى وإضفاء روح العصر عليهِ.

- والأهمُّ من ذلك هو الوقوف على قضيّة استسلام "الأمير عبد القادر" التي لا تمُتُّ للواقع بصلةٍ، إذ تبيّن أنّ خُروجهُ من الجزائر كان أمرًا اضطراريا حقنًا للدِّماء آملاً العودةَ إليها، والذي بقي حُلُماً يُراودُه بِسبَبِ المُعاهدة المفروضة عليهِ بعد الأسر.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر و المراجع:

أوّلا: المصادر:

الأمير عبد القادر الجزائري: الديوان، شرح وتحقيق ممدوح حقي، دار اليقظة العربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر (د . ب)، (د . ت)، (د ط). .

ثانيا: المعاجم:

أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: الكليات، معجم المصطلحات والفروق اللّغويّة، تحقيق عدنان درويش وآخرون، مؤسسة الرّسالة للطّباعة والنّشر، لبنان. (1419هـ ،1998م)، (ط2).

الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين ج4، ترتيب وتحقيق عبد الحميد المنداوي منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان (1424هـ /2002م)، (ط1).

الفيروز أبادي: القاموس المحيط، تحقيق مكتب التّراث في مؤسسة الرّسالة إشراف: محمد العرقسوسي، مؤسسة الرّسالة للنّشر والتّوزيع، (1426هـ ،2005م)، (ط2).

ثالثا: المراجع:

أباظة نزار: الأمير عبد القادر العالم المجاهد، دار الفكر بدمشق، سوريا، (1414هـ .1994م)، (ط1).

إبراهيم أنيس: الأصوات اللّغويّة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة مصر، (د ط).

الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية للنشر، مصر ـ 1975(ط 5)

بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصّوفي، كليّة التّربيّة جامعة عين شمس، دار النّشر الإلكتروني (د ب)، (د ط).

البطل علي: الصّورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثّاني الهجري. دراسة في أصولها وتطوّرها، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، (د . ب)، (1401هـ . 1981م). (ط2).

الجبوري يحيى: الحنين والغربة في الشِّعر العربي، الحنين إلى الأوطان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، جامعة أربد الأهليّة الأردن، (1428هـ ،2008م) (ط1).

الجزار أحمد كمال: المفاخر في معارف الأمير عبد القادر والسّادة الأكابر

الجندي أنور: خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النّقد العربي الحديث. دار الكتاب اللّبناني للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان.1985 م.(ط2).

الخشروم عبد الرّزاق: الغربة في الشِّعر الجاهلي، منشورات اتّحاد العرب دمشق، سوريا ،1986م. (د ط).

درويش أحمد: مدخل إلى الأدب العربي الحديث، جامعة القاهرة، مصر. (1429هـ. 2008م). (د. ط).

دقالي محمد أحمد: الحنين في الشِّعر الأندلسي(ق7هـ)، دار الوفاء للطّباعة والنّشر، الاسكندريّة، مصر.2003م. (د ط).

بن السبع عبد الرّزاق: الأمير عبد القادر وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشِّعري. (د. ب)، (د. ت)، (د. ط)، الأصوات اللّغويّة، مكتبة الأنجلو المصريّة للنّشر، مصر.1975، (ط5).

سعيدوني ناصر الدّين: عصر الأمير عبد القادر الجزائري. مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشِّعري سنة 2000م. المملكة العربيّة السّعوديّة، (د. ط).

الشحات محمد: سرديات المنفى، الرّواية العربيّة بعد عام (1967م)، أزمنة للنّشر والتّوزيع، عمان الأردن.2006م.(ط1)، راجعه وقدّم له: محمد زكي إبراهيم، مطبعة العمرانيّة للأوفست الجيزة، مصر (1447هـ. 1997م)، (ط1).

أبو شريفة عبد القادر، وآخرون: مدخل إلى تحليل النّصّ الأدبي، دار الفكر عمان، المملكة الأردنيّة الهاشميّة. (2008م 1928هـ)، (ط4).

الصلابي علي محمد: كفاح الشّعب الجزائري ضدّ الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر الجزائري تاريخ الجزائر إلى ما قبل ح ع 1.دار المعرفة، بيروت لبنان. (د. ت)، (د. ط).

طعمة غابر فرمان: أدب المنفى والحنين إلى الوطن. دار المدى للثّقافة والنّشر دمشق، سوريا.1996م، (د. ط).

طه حسين: حافظ وشوقي. مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، مصر 2.2012م. (د. ط).

عبد السلام محمد هارون: الأساليب الإنشائيّة في النّحو العربي. مكتب الخانجي للنّشر. القاهرة، مصر. (1421هـ. 2011م)، (ط5).

العربي منور: تاريخ المقاومة الجزائريّة في ق 19.دار المعرفة للطّباعة والنّشر. باب الواد، الجزائر. (د. ت) (د. ط).

بو عزيز يحيى: الأمير عبد القادر الجزائري رائد الكفاح الجزائري، الدّار العربيّة للكتاب، تونس،1983، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع بالجزائر، (ط3) منقّحة ومزيد فيها، تقليد وتجديد، مؤسسة هنداوي للطِّباعة والنّشر، القاهرة مصر. (د ط).

قائمة المصادر و المراجع:

عشراتي سليمان: الأمير عبد القادر المفكِّر، مساجلات في قضايا اللّغة والمعرفة وفقه الخطاب القرآني. دار الغرب للنّشر والتّوزيع الجزائر.2004. (ط1).

. الأمير عبد القادر في بلاد المشرق، ملحق بكتاب 10سنوات في أرض الإسلام للجاسوس ليون روش، دار القدس العربي للنّشر والتّوزيع، وهران، الجزائر. (2011)، (ط1).

. الأمير عبد القادر الشّاعر، مدخل إلى تحليل الخطاب الشِّعري في محطّة المابعد. دار القدس العربي للنّشر والتوزيع وهران، الجزائر. (2011م)، (ط2).

بن عيد العطوي مسعد: الأدب العربي الحديث، مكتبة الملك فهد الوطنيّة تبوك، الأردن، (1430ه)، (2009م) (ط1).

فوزي عيسى: الشِّعر الأندلسي في عصر الموحِّدين، دار الوفاء لدنيا، الطباعة والنّشر، مصر ،2007. (ط1)، الشعر العربي في الصقلية، ق 5ه، دار الوفاء، لدنيا الطباعة والنشر، مصر، 2007، (ط1).

مارون عبود: أدب عربي، مختصر تاريخ نشأته وتطوّره وسير مشاهير ورجاله وخطوط أولى من صورهم. مؤسسة هنداوي للطّباعة والنّشر. القاهرة، مصر. (د . ت)، (د . ط).

مندور محمد: فنّ الشِّعر، مؤسسة هنداوي للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر. 2017م، (د ط).

مهداوي محمد: شعر الغزوات أيام الرّسول ﷺ أغراضه وخصائصه الفنيّة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر .2004م (د . ط).

رابعا: الدّواوين:

ابن الأبار القذاعي البلنسي: الديوان، قراءة وتعليق، عبد السّلام الهراس. وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة. المغرب. (1420ه. 1999م)، (د . ط).

البارودي محمود سامي: الديوان،4/1.حقّقهُ وضبطهُ وشرحهُ، علي الجارم وآخرون. دار العودة. بيروت، لبنان.1998م. (د . ط).

بكر بن النطاح الحنفي: الديوان، شرح وتحقيق، عاتكة الخزرجي. مطبعة دار الكتب المصريّة. القاهرة، مصر. (1373ه. 1969م)، (د ط).

بن حميديس: الديوان، قدّمه وحقّقه، إحسان عباس. دار صادر للطّباعة والنّشر. الاسكندريّة. مصر .2003م.(ط1).

أبو دهبل الجمحي: الديوان، رواية أبو عمرو الشيباني. تحقيق عبد العظيم عبد الحسن، مطبعة التّضاد في النجف الأشرف. (1392هـ، 1472هـ) البصرة، العراق. (ط1).

شوقي أحمد: الأعمال الشِّعريّة الكاملة، المجلّد الأوّل. دار العودة للطِّباعة والنّشر بيروت، لبنان.1998. (د . ط)، الأعمال الشِّعريّة الكاملة، المجلّد الثاني، دار العودة للطِّباعة والنّشر، بيروت لبنان.1988. (د . ط)، أسواق الذّهب، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثقافة. القاهرة، مصر.2012. (د ط).

الصّمة بن عبد الله القشيري: حياته وشعره. جمعه وحقّقه وشرحه عبد الرّؤوف الحبر خالد. جامعة البتراء، عمان، الأردن .2003م. (د . ط)، مجلّة معهد المخطوطات العربيّة، المجموعة 15 الجزء 1، (د . ب)، (د . ت)، (د . ط).

العباس بن الأحنف: الديوان، شرح وتحقيق، عاتكة الخزرجي. مطبعة دار الكتب المصريّة. القاهرة، مصر. (1373هـ. 1969م)، (د ط).

علي بن الجهم: الديوان، تحقيق خليل مردم بك. منشورات دار الأفق الجديد. بيروت، لبنان. 1989م، (ط2).

أبو فراس الحمداني: الديوان، شرح خليل الدوسي. دار الكتاب العربي للنّشر. بيروت، لبنان. (1419هـ. 1994م) (ط2).

قيس بن الملوح، مجنون ليلى: الديوان، رواية أبي بكر الوالي. دراسة وتعليق عبد الغني يسري. منشورات محمد علي بيضون. دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان. (1420هـ. 1993م)، (ط1).

قائمة المصادر و المراجع:

مالك بن الريب: الديوان، حياته وشعره. تحقيق نوري حمودي القيس، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجموعة 15الجزء 1 (د ـ ب)، (د ـ ت)، (د ـ ط).

ابن ميادة: الديوان، جمع وتحقيق، حنا جميل حداد. مراجعة وإشراف قدري الحكيم. مطبوعات مجمّع اللّغة بدمشق. سوريا. (1402هـ، 1982م)، (د ـ ط).

يحيى بن طالب الحنفي: حياته وشعره، تأليف محمد بن ناصر الدخيل، طباعة ونشر الإدارة العامة للثّقافة والنّشر. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة. المملكة العربيّة السعوديّة. (1421هـ ـ 2000م). (ط1).

خامسا: المجلات:

مزيدي مجيد صادقي: مجلة الجمعيّة الإيرانيّة للّغة العربيّة وآدابها، فصليّة محكمة، العدد 21. شتاء. (1390هـ ـ 2011م).

الرّسائل الجامعيّة:

روباش جميلة: بنية الخطاب الشِّعري عند المنداسي التلمساني، دراسة أسلوبيّة. مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير تخصُّص أدب جزائري قديم

الرواجبة عيسى ين فالح: الحنين في الشعر العباسي الأوّل (132هـ ـ 234هـ) .

العماوي نضال عليان عويض: الغربة والجنين في شعر أحمد شوقي دراسة وصفيّة تحليليّة. رسالة مستكملة لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب والنّقد. كلّيّة الآداب الجامعة الإسلاميّة، غزّة، فلسطين. 2015م.

رسالة مستكملة لمتطلبات درجة الماجستير في تخصّص النّقد. (2011م). الجامعة العالميّة الزّرقاء، الأردن

سنة (2007/2006). جامعة محمد خيضر، بسكرة.

فهرس

الموضوعات

ـ فهرس الموضوعات:

البسملة

الإهداء.

الشُّكر والعرفان.

مقدّمة ..... **أ**

الفصل الأوّل :التّأصيل لظاهرة المنفى:

تمهيد.....**ص 5**

المبحث الأوّل :المنفى في العصور الإسلامية الأولى بداياته ومظاهره.....**ص 8**

المنفى والحنين للوطن في صدر الإسلام..... .....**ص 8**

الحنين والغربة في العصر الأمُوي.....**ص9**

الحنين في العصر العبّاسي.... .....**ص 14**

الحنين في العصر الأندلسي..... .....**ص 21**

المبحث الثّاني :المنفى والاغتراب في العصر الحديث.....**ص 28**

العالم العربي قبل حملة نابليون على مصر..... .....**ص 28**

الاغتراب والنّفي لُغةً واصطلاحا..... .....**ص 33**

الاغتراب لغةً واصطلاحا..... ..... **ص 33**

ـ فهرس الموضوعات:

النّفي لغةً واصطلاحا..... .....ص34

أثر المنفى في شعر البارودي.....ص 35

أثر المنفى في شعر أحمد شوقي..... .....ص 38

الفصل الثّاني: ـ أثر المنفى في شعر الأمير عبد القادر:

ـ تمهيـد ص45

ـ نشأتهُ ص47

الأمير عبد القادر والسّيِّدة الوالدة ص50

جهاد الأمير ضدّ القوّات الغازية الاستعماريّة ص50

ـ المبحث الأوّل: ـ حياة الأمير بالمنفى ص57

ـ أسر الأمير بفرنسا ونقضها للوعد ص57

ـ حياة الأمير بالمشرق ص61

ـ الدولة العثمانيّة (تركيا) ص61

ـ حياة الأمير في دمشق..... ص62

ـ سببُ اختيار الأمير لدمشق ص62

ـ حادثة دمشق ص64

ـ وفاتـه ص66

فهرس الموضوعات:

المبحث الثّاني: . الأمير الشّاعر بأرض المنفى ص67

. أثرُ المنفى في شعر الأمير من خلال قصيدتهِ: "عذاب الأسر".....ص67

. اللّغة والأسلوب ص70

. الألفاظ ص70

. العاطفة ص72

. الأساليب المستخدمة ص73

. الصّورة ص75

. الصّور البيانيّة ص75

. المحسِّنات البديعيّة ص77

. التّصريع البديعي..... ص77

. الصّوت ص78

. قصيدة "أبى القلب" ص79

. الألفاظ ص81

. العاطفة ص82

الأساليب المستخدمة ص82

. الصّوت ص83

. خاتمة ص85

. قائمة المصادر والمراجع ص87

. فهرس الموضوعات ص93

يعود أصل المنفى بالنسبة للعرب إلى العصر الجاهلي حيث كانت القبلية هي الموطن الأساسي له وبدأ في التأصل بمرور العصور الإسلامي، الأموي والعباسي مع وجود نفس الأسباب وخلق أخرى جديدة في كل عصر سواء كانت مزوج المسلمين وفرارهم بدينهم من الكفار أو ظلم الحكام أو الفتوحات الإسلامية وصولا للعصر الحديث والذي برز فيه سبب عامل الاستعمار حيث تم نفي العديد من الشعراء بعيدا عن أوطانهم أمثال البارودي وأحمد شوقي وعلى رأسهم الأمير عبد القادر والذي قاد لواء الجهاد ضد الوات الغازية مدافعا عن أرضه ووطنه منفيا بنفيه بعيدا عن الوطن مبينا ذلك في خيرة قصائده

Les origines dès l'exil des arabes remontent à l'ère préislamique, ou la tribu en était le foyer principal, et il a commencé à prendre racine avec le passage des âges islamiques, omeyyade et abbasside avec les même raisons et la création de nouvelles à chaque époque, que ce soit le départ des musulmans et leur fuite des infidèles ou l'oppression des conquêtes islamiques jusqu'à l'ère moderne dans laquelle il a émergé en raison du facteur colonial, ou de nombreux poètes ont été exilés loin de leur patrie comme ALBAROUDI et AHMED SHAOUKI déréglé parle prince ABDULQADIR qua a dirigé la brigade de jihad contre les force coloniales défendant sa terre et sa partie se terminant par son exil de leur partie montrant la douleur de la séparation dans le meilleur se poèmes